محمد جواد مغنية

فلسفة التوحيد والنبوة

دار الجواد
بيروت - لبنان
ص. ب ١٤-٥٨١٣

دار التيار الجديد
بيروت - لبنان
ص. ب ١٤-٥٨١٣



محمد جواد مغنية

فلسفة التوحيد والنبوة

دار الجواد
بيروت - لبنان
ص. ب ١٤-٥٨١٣

دار التيار الجديد
بيروت - لبنان
ص. ب ١٤-٥٨١٣

الطبعة الرابعة

١٤٠٤ هـ ـ ١٩٨٤م

اثبات الخالق

بمنطق الحس والعقل

الدين والشباب

في كل العصور وجد الايمان والمؤمنون بالله ، والالحاد والملحدون به ، وما خلا يوم واحد من اولئك وهؤلاء ، ولكن لماذا اعرض الشباب عن الدين في هذا العصر اكثر من أي وقت مضى ؟ : هل اكتشف فيه هذا الجيل عيوبا واخطاء خفيت على من عاش قبلهم في عصر الظلمات ، وهم يعيشون في عصر النور والتقدم . والمكتشفات والمخترعات ، او ان قادة الدين خانوه ، وانحرفوا عنه ، فزعزت الثقة به وبهم ؟ .

ولا يلجأ في التعليل الى الشطر الاخير الا حاقد او جاهل .

لان الكلام والسؤال عن الدين لا عن رجاله .. والمنحرفون من كل نوع ، لا من رجال الدين فقط موجودون في كل زمان ومكان .

واجاب البعض من رجال الدين عن هذا السؤال من خلال مشكلاته الجزئية ، ومصالحه الشخصية .. وليس في ذلك اية غرابة ، بل هو على الاصول والقواعد ، بالاضافة الى عجزه عن تمحيص الادواء الاجتماعية، وتحليلها بطريقة موضوعية .

وقال آخرون : يرجع السبب في ذلك الى تيارات ومذاهب فلسفية

زائفة في تفسير الكون بخاصة المذهب القائل بان المادة هي الموجود الوحيد . وان الحياة نشأت منها على غير قصد .. ولنا مع الماديين مواقف في كتاب فلسفة المبدأ والمعاد .. وسنقف معهم ايضا بعد لحظات .. ومن تلك التيارات والمذاهب نظرية التطور ، فقد ظن البعض خطأ بأنها تتعارض مع الدين ونصوصه ... ولكن عددا غير قليل من القائلين بهذه النظرية ، ومنهم داروين نفسه يؤمنون بالله ايمانهم بانفسهم بعد ايمانهم بانه لا تفسير لتطور المادة يركن اليه العقل والقلب الا بوجود قادر عليهم وراء الطبيعة والمادة ، ويأتي البيان في فقرة الانسان والقرد .. وقد اجاب **شباب الهيبيز** عن هذه التيارات ونحوها باللامعقول في المظاهر والافعال ، وفي المخاريق والمخدرات .

ونحن لا نشك ابدا في ان بعض المدارس والمذاهب سبب من اسباب الالحاد ، واعراض الشباب عن الدين ، وان الكثير منهم انخدع باسماء تشير الى تيارات مغرضة ، واسماء لامعة ، تكلم اصحابها عن الكون وتفسيره ، وهم في عمى عن اصله وسره ، نحن لا نشك في ذلك ، ونعطف عليه سببا آخر نعرضه على الشكل التالي :

تنقسم العلوم الى انسانية ، وطبيعية ، وتهدف الاولى الى دراسة الانسان وحياته ومشاعره وتاريخه ، وتهتم بالقيم والمثل العليا ، ويندرج فيها علم الدين والفلسفة والاخلاق ، والادب والفنون ، والتاريخ والسياسة والاقتصاد ، وما اشبه ، وقد تسهل العلوم الانسانية وسائل العيش لصاحبها ، ولكن هذه الوسائل غير مقصودة بالذات .

اما العلوم الطبيعية فتهدف الى معرفة الطبيعة واشيائها بصرف النظر عن حقيقة الانسان وتاريخه مع العلم بانه كائن طبيعي ، ولا مفر من اعتباره جزءا من الطبيعة ، وان تميز عن غيره بالعقل والوعي ، والمقصود الاول من معرفة الطبيعة تسخيرها في وسائل العيش ، ومطالب الحياة ، ومن اجل

هذا تندرج فيها الصناعة بشتى انواعها •• وقد تبوأت العلوم الانسانية في القديم ، وحيث لم تتقدم الصناعة بعد هذا التقدم الهائل ، وتجرد الانسان عن انسانيته ، تبوأت الانسانيات مكانا عليا ، وبخاصة الدين حيث كان تأثيره بالغا في تفكير الناس ، وسلطانه قويا على حياتهم في شتى جهاتها •

وفجأة وبسرعة مدهشة خرجت الآلة كالعفريت ـ كما شبهها البعض ـ وتطورت الصناعة من الاعتماد على اليد والدولاب الى البخار ، ثم الكهرباء فالذرة ، ووقع الانقلاب العميق والخطير في الحياة ، وتراكمت الثروات ، وامتلأت الجيوب بالنقود ، وتأسست الشركات ، واقيمت المصارف ، وارتفعت البنايات الى قمم الجبال • فتأثر الشباب اي تأثير ، وتمرد الابناء على الآباء ، وأصابهم ما يشبه المس والحمى ، وأبوا الا أن يتجهوا الى المادة وعلومها ليحققوا ارفع مستوى ممكن من الحياة ولو على حساب الدين والضمير والقيم والمبادىء وعلم الدين لا يوصلهم الى هذه الغاية ••• كيف ؟ وهل للدين مصانع ومعامل تدر الاموال ؟ • فانصرفوا عنه الى العلوم العصرية وكل ما يحقق الاماني ويشبع الرغبات، وبالتالي تمردوا على العقائد والاخلاق والتقاليد •• وبهذا كان يعتذر الى عهد قريب المتشائمون من العلوم العصرية •• وكنا نسخر منهم انذاك ، انا وبعض الرفاق يوم كنت طالبا في النجف الاشرف •

والاسلام يعترف باهمية العلوم الطبيعية ويعتبرها من ضرورات الحياة وقد حث عليها كما حث على العلوم الانسانية واعتبرها فريضة على كل مسلم ومسلمة شريطة ان توجه الى خير الانسانية وصالحها واي شيء يجلب الشرور والآلام فهو حرام ومن اكبر الكبائر في نظر الاسلام سواء اسميناه علما انسانيا ، ام علما طبيعيا ، فالآلة التي تصنع او تحمل للمستهلكين الطعام واللباس والدواء فهي عندالله خير ، اما اذا صنعت او حملت الاسلحة الفتاكة ، واجهزة التجسس فهي شرووبال •

والخلاصة ان الموجب لاعراض من اعرض عن الدين من الشباب هو المذاهب المادية الالحادية وحب التباهي والمضاهاة هي المظاهر ومتاع الحياة ... وايا كان السبب فانا نعرض في هذا الفصل الدليل على وجود الخالق من الحس والعقل من غير تحيز او تقليد ، وبصرف النظر عن ايمان من آمن والحاد من ألحد ، ونبدأ قبل كل شيء في انه : هل يجب على البالغ العاقل البحث والنظر لمعرفة الخالق ، او هو في حل من ذلك ؟.

وجوب البحث والنظر

من توضيح الواضحات ان نقول : العلم بالشيء اي شيء ، خير من الجهل به ، فكيف العلم بانه : هل لهذا الكون خالق ومبدع ؟. وهل للانسان مبدىء ومعيد ؟ : وهل هو مسؤول امام خالقه ؟.. وايضا من نافلة الكلام ان نقول : ان الجيل في هذا العصر قد اقبل على العلم ومدارسه اكثر من اي وقت مضى .. ولكن نتساءل : هل الباعث للجيل على طلب العلم هو حب الاطلاع ، ومعرفة الحقيقة ، ام شيء آخر ؟

واشرنا قبل لحظة ان الغالبية الكبرى من ابناء هذا الجيل يطلبون العلم كوسيلة للمال والعيش ، وانهم يقيسون الشهادة بما تدر عليهم من متاع الحياة ، تماما كالبقرة يقاس ثمنها بقدر ما تحلب .. ولو كانوا من طلاب العلم واقعا ، واهل الرغبة في التمييز بين الحق والباطل ، والخير والشر لاتجهوا ، ولو قليلا الى دراسة هذا الوجود :

« وهو كتاب الفه الله ، فاحكم تأليفه بان جعل كل عنصر من عناصر الوجود حرفا من حروفه ، وكل ذرة من ذرات الكائنات كلمة من كلماته وكل عنصر يقوم به كائن هو جملة مقروءة ، واذن فللوجود لغة فصيحة سوية النظام ، وكل مركب من مركباته الطبيعية وراءه معنى كالكلمة تماما ووراء هذا المعنى حقيقة خفية ، تبعث على التفكير يفهمها كل لقن ذكي

يدرك تعبير الحقيقة المطلقة خلال صحائف هذا الوجود •• بيد ان تلك الحقيقة مجردة ، لا تتفتح اصدافها عن معانيها تماما الا لكل ذي قلب ذكي ، ومنطق سليم ونظرة خالصة الى الوجود لا تشوبها نزوة من جمود، لان المخاطب بتلك اللغة انما هي السرائر الانسانية ، والضمائر الحية الكامنة في نفس البشر ، وما تكنه من مدارك ووجدانيات » (١) •

هذا ، الى انا نعلم علم اليقين بان ملايين العقلاء قد آمنوا ــ على مر العصور ــ بان للكون خالقا حكيما ، وانه ما ترك الانسان سدى ، بل امره ونهاه ، وانه يعيده بعد الموت للحساب والجزاء •• أليس هذا بكاف لوجوب البحث عن الدلائل ، والنظر في الكون وفي انفسنا لنعلم : هل ايمان الملايين من العلماء والعقلاء صواب ، او خطأ ؟ أليس معنى هذا ان البحث والنظر لمعرفة الله سبحانه هو في جوهره بحث عن الانسان بالذات، وعن مبدئه ومصيره ، وتقييم حياته ، وعن مسؤوليته اتجاه نفسه وغيره ؟•• ان العلم بالله وكتبه ورسله يفتح للانسان ابوابا الى معرفة الكثير من الحقائق والاسرار التي لا يهتدي اليها علم من العلوم : او عقل من العقول بالغا ما بلغ الا بنور من دين الله وشريعته ، وقديما قال العارفون بالمعنى الدقيق للعلم والمعرفة ، قالوا : ان العقل كالبصر، والشرع الالهي نور يهديه الى الصراط القويم ، ومن لا عقل له فهو اعمى ، ومن جهل شريعة الله تخبط في الظلمات •

وبعد ، فما من عاقل الا ويدرك بانه موجود ، وانه حي ، وله احساس وادراك وانه ذرة في هذه الارض ، وهي ذرة من الكون العجيب ••• الا يوحي ذلك كله بان على الانسان ان ينشد الحقيقة ويفكر في سبب وجوده ومصيره ، فان بحث جاهدا واطمأن عقله الى السبب فذاك،

---

(١) من مقال نشرته جريدة الجمهورية المصرية ، عدد ٢٤ اغسطس ١٩٦٧ بقلم محمود ابي الفيض المنوفي •

وان عجز توقف الى ان يزداد فهما وعلما ، وترك ما لا يستطيع الى ما يستطيع ولا يسرع الى النفي ويقول : كل ما في الكون صدفة واتفاق . وعبث في عبث ، وتجدر الاشارة الى ان ما ذكرناه في هذه الفقرة هو شرح وتفسير لقول علماء الكلام : « ان النظر في معرفة الله واجب باتفاق المسلمين » .

دلالة الكون على علته :

قال المثاليون : لا وجود لشيء الا اذا ادركه عقل من العقول ، وما لا يدركه عقل ما يستحيل ان يوجد .

ويتلخص الرد عليهم بكلمات ثلاث : الاولى انهم يصادمون البديهة والعيان ، لان العالم الخارجي مستقل بوجوده عن الانسان وادراكه ، الثانية انهم اقاموا ادراك الاشياء مقام خالقها وموجدها ، الثالثة يلزم على قولهم هذا ان يكون كل فرد دنيا بنفسه ، وان العالم الذي يعيش فيه زيد غير العالم الذي يعيش فيه بكر ، والنتيجة الحتمية لذلك انه لا معرفةعامة على الاطلاق ، اذ يستحيل الاتفاق على شيء ، وهذا ما دعا « برتراند راسل ان يقول عن « بركلي » زعيم هذا المذهب : « ان مثالية بركلي تصور لنا شكلا من الجنون الذاتي الذي يطبع معظم الفلسفة العصرية » .

ومن البداهة بمكان ان العالم الخارجي مستقل بوجوده وقوانينهعن الانسان ، وعن ادراكه ، وانتفاعه به ، لان الطبيعة اسبق في وجودها من وجود الانسان ، وايضا من البداهة ان ما من شيء له نصيب من الوجود الا ويمكن العلم به ، وبعلة وجوده بعد البحث والنظر . سواء أكان ماديا ، ام غير مادي ، وهذا واضح لا ريب فيه .. ولكن هل في الكون دلائل تكشف لنا عن وجود علته ؟. وما هي هذه الدلائل على فرض وجودها ؟.

وأجاب سبحانه عن هذا السؤال بلسان رسله وانبيائه : انه ، جلت عظمته ، هو خالق كل شيء ، وقد نبه العقول الى الادلة والامثال الظاهرة القاطعة على ذلك : « وتلك الامثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون ــ ٢١ الحشر » • والادلة التي ذكرها سبحانــه على وجوده كثيرة ومتنوعــة ، ويجمعهــا او يجمع اكثرهــا الانتقــال والسير من المعلول الماثل امــام العيان الى علته ، وتتم عملية الانتقال من المعلول الى علته في ضوء الحس والعقل معا ، وتسمى هذه العملية عند اهل المنطق بالبرهان الآني ، واليه اشار سبحانه بقوله : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق ــ ٥٣ فصلت » •

وقوله تعالى : « سنريهم ••• حتى يتبين » يدل بوضوح عــلى ان دين الله والايمان به يعتمد على منطق الحس والعقل ، اي على التفكير في الطبيعة بمعونة الحواس بحيث يكون الايمان بالله نتيجة للبحث والنظر في الشيء المحسوس ، لا نتيجة الوهم والخيال ، والتقليد والتلقين ــ كما يظن الجاهلون ــ ونعطف على منطق الحس والعقل منطق القلب ، فمــا من انسان حتى الجاحد (١) الا وتمر بقلبه لمعة ، او تظهر على لسانه كلمة ــ من حيث لا يريد ــ تنبىء عن وجود المبدع لهذا الكون العظيم ، فهو يجحد بشيء يؤمن به في قرارة نفسه دون ان يلتفت الى ايمانه هذا •• ولا تفسير لذلك الا ان الواقــع يفرض نفسه حتى على اعدائه ومعانديــه • وتسأل : نحن نؤمن بفكرة واجب الوجود ايماننا بانفسنا ، لانه اذا لــم نفترض وجود هذا الواجب لاستحال ان يوجد شيء على الاطــلاق •• ولكن لماذا نلف وندور في البحث عن علة واجبة الوجود لنفسر بها وجود

---

(١) اجتمع تشرشل وستالين اثناء الحرب العامة الثانية وبعد الاجتمــاع نقل الى مراسلي الصحف ان ستالين كان مكررا اسم الله في حديثه ويقسم به مؤكدا اقواله ونشرت الصحف ما نقلــه تشرشل رئيس الوزارة الانكليزية عن امام الشيوعيين ورئيس الدولة الروسية .

الطبيعة ما دمنا في غنى عنها بوصف الطبيعة نفسها بواجبة الوجود ؟ وانها لا تحتاج الى علة توجدها تماما كما يقول المؤمنون عن الاله الكائن وراء الطبيعة ، **وبكلام آخر** ان الماديين يسلمون مع المؤمنين بان واجب الوجود ضروري حتمي ، ولكنهم يقولون : هو الطبيعة . ويقول المؤمنون : بل هو الله الموجود وراء الطبيعة ولماذا الذهاب الى الوراء ، والبحث عن الغائب ما دام الحاضر كافيا وافيا ؟. ومهما يكن ، فان الاختلاف بين المؤمن والجاحد انما هو في التطبيق لا في المفهوم ، وفي الصغرى لا في الكبرى .

الجواب :

اولا : لقد كشف العلم الحديث « ان المادة عبارة عن مجرد حوادث ظاهرة متتابعة لعوامل خفية تكونها ، ثم تتحول المادة الى طاقة . والطاقة الى مادة اخرى ، وبكيفية اخرى .. حتى الكائنات التي لا تبدو لاعيننا ثابتة هي في واقعها سريعة الحركة ، والتطور والتغيير » . ومن البداهة بمكان ان ما كان على هذا الوصف والوضع من التحول والتغيير ـ يستحيل ان يكون واجب الوجود ، وعلة اولية لنفسه ولغيره .

ثانيا : ان المادة الجامدة العمياء لا تكون ولن تكون سببا للحياة والادراك ، ولا للنظام والانسجام ، لان فاقد الشيء لا يعطيه .. واي عاقل يقول : ان العقل في الانسان ، والنظام في الكون ، وما اليهما من حكمة وتدبير ، كل ذلك قد وجد من طبيعة جامدة ، او بنحو الصدفة التي رفضها العلم والفلسفة ، والعقل والوجدان .

اما القول بانه لا فرق بين من آمن وجحد الا في التطبيق والتسمية فقد صدقه بعض السذج ، وهو جهل فاحش ، وخطأ كبير ، لان إله

المؤمنين عالم مريد ، يبدأ الخلق ، ثم يعيده للحساب والجزاء ، ويرسل الانبياء مبشرين ومنذرين ، واين منه المادة الجامدة العمياء ؟.

نحن والتجريبيون

التجريبيون هم الذين قالوا : ان مصدر المعارف كلها هو التجربة والخبرة الحسية ، وان وسيلتها الوحيدة هي الحواس الظاهرة : السمع والبصر والشم والذوق واللمس .. واية فكرة رأيا كانت او عقيدة لا تستند الى حاسة من هذه الحواس مباشرة وبلا واسطة فهي سخف وهراء وكلام فارغ .. وهذه عبارتهم بالحرف : « لو اقفل باب الحواس لامتنعت المعرفة كلها » . فصحة الفكرة عندهم تقاس باعتمادها مباشرة على الحس وحده ، اما اذا اعتمدت على الحس وبديهة العقل معا تكون الفكرة مجرد وهم وخيال ، وبالأولى اذا اعتمدت على العقل فقط .

مثلا نحن نتصور وجود الكون ، ونؤمن به ، فهذه الصورة صحيحة وهذا الايمان سليم حيث اعتمد كل منهما على الحس بلا واسطة اما اذا تصورنا وجود خالق الكون ، وآمنا به فيكون التصور والايمان من وهم الخيال ، لانهما لم يعتمدا على شهادة الحواس وحدها ، بل عليها وعلى النظر العقلي ، وهو مبدأ العلية الذي لا يبتني على الحس ، وانما العقل حين رأى الترابط والتلازم وجودا وعدما بين حادثين استخلص من ذلك ان احدهما علة للآخر ، او انهما معلولان لعلة واحدة مع انه لا ضرورة لهذه العلية على الاطلاق حتى ولو اطرد التلازم بين الحادثين آلاف المرات، لانه — على حد تعبيرهم — ما رأينا لهذه الضرورة حجما او لونا ، ولا سمعنا لها صوتا او حركة ، ولا ذقنا لها طعما ، او شممنا لها ريحا ، فكيف نحكم بوجودها ؟. (انظر كتاب نظرية المعرفة للدكتور زكي نجيب محمود ص ٥٢ وما بعدها ط ١٩٥٦) .

وتجدر الاشارة الى ان التجريبيين لا يطلقون كلمة العلم الا على

الخبرة الحسيـة التي جاءت نتيجة للتجربـة ، ويسمون سائر المعـارف بالنظريات الغيبية والميتافيزيقية والمثالية والذاتية ، ويسخرون منها حتى ولو اعتمد الغيب فيما اعتمد على الواقع الفعلي التجريبي .

الجواب :

١ ــ نحن نسلم بالتجربة ، ونصدق شهادة الحواس ، بـل ونعتبرها حجة ودليلا على الحق ، ولا نسأل ونبحث عـن سبب حجيتها ودليـل اعتبارها ، لان علة التصديق بها موجودة فيها بالذات حيث لا شيء وراء الحس والعيان ... نحن نؤمن بذلك ، وفي الوقت نفسه نؤمن ببداهـة العقل وشهادتها ، تماما كما نؤمن بشهادة الحواس ، لان الانسان بعقلـه وحواسه ، ولا غنى له باحدهما عن الآخر ، فالحواس تهدي العقـل الـى الطريق ، وتفتح له باب المعرفة ، والعقل يختبر ما تراه الحواس وينظر : هل هو في حقيقته وواقعه على ما بدا للحـواس ، او على غير مـا رأت وشاهدت ؟.

ونعني ببداهة العقل : الخبرة الفطريـة التي يشترك فيها العالـم والجاهل ، ولا تتأثر وتختلف باختـلاف الامزجـة والطبايع ، والبيئـة والتربية ، كالعلم بان المتساويين لثالث متساويان ، وان المثلث غير المربع ، والكل اعظم من الجزء ، وان الشخص لا يوجد في مكانين بآن واحـد ، وان الشيء لا يصدق عليه النفي والاثبات من جهة واحدة ، بل اذا صدق احدهما كذب الآخر . وبالعكس ، ومن انكر هذه البداهـة وصحتهـا فهو تماما كمن انكر شهادة الحواس وسلامتها .. وما لنا ولعقول الناس ومعرفتهم ، فلندعها ونعرض على الواقع : هل يقبل ان يكون الشيء واحدا وكثيرا ، وموجودا وغير موجود في آن واحد ؟.

وهذه الشهادة الحسية والبداهة العقليـة هما الطريقان الاوليـان

والاساسيان لمعرفة الحقيقة وقياسها بشتى انواعها ، وعليهما تمضي حركة الفكر الانساني ، وهما مصدر افعاله وآثاره ، وعلومه وتقدمه ، وبدونهما لا يمكن بحال الحديث عن الصواب والخطأ ، ولا عن العلم والجهل ... ولكن ليس معنى هذا ان المعرفة او الفكرة لا تكون صحيحة الا اذا استندت الى احد هذين الاصلين مباشرة ، بل يكفي ان تنتهي اليه بواسطة او اكثر ، فاية نظرية او عقيدة تقوم على اساس من شهادة الحس او بديهة العقل ولو بالواسطة فهي حق وصدق ، وعلم وصواب حتى ولو كانت غيبية ، والا فهي جهل وضلال .

واذن فالعبرة بدليل النظرية والعقيدة لا بنوعها وغيبيتها او حسيتها .. ابدا لا فرق ولا تفاوت عند العلماء حقا وواقعا حتى في مقدار الوضوح والظهور ـ بين الايمان بعالم الغيب والايمان بعالم الشهادة ما دام الشاهد منطق الحس وبديهة العقل ، وبهذا يتبين الجهل والخطأ في تقسيم النظرية الى غيبية وغير غيبية ، والحكم ببطلان الاولى على كل حال حيث يفرض علينا منطق العلم والحق ان نقيس النظرية بدليلها ومصدرها . لا بنوعها وبما هي في ذاتها .

والايمان بالله ايمان بالغيب ، لانه تعالى لا يقع تحت الحواس ، ولا تصل اليه التجربة الآلية ، ولكن هذا الايمان حق وصدق ، لانه يقوم على اساس من شهادة الحس ، وبديهة العقل ، فالعين ترى الكون وما فيه من نظام وقوانين ، ومن تغير وتطور ، ثم تعرض ما رأت على العقل ، وهو ينظر ويفكر في ان هذا الكون المتغير بل والمستمر التغير ، والذي لا يحس ويشعر يستحيل ان يكون علة لذاته ولنظامه وتغيره ، ولسيره في اتجاه معين ، بل لا بد له من علة ثابتة اولية قد تفردت بالعلم والقدرة والارادة ، وهي التي تحدد اتجاهه ، وتنسق حركاته ، وتنظم قوانينه ، وتدفع به الى الغاية المقصودة من وجوده .. ان العلة الاولية للكون خفية وغيبية ، هذا

صحيح ، ولكن الايمان بها يبتدىء من الاعتماد على المعرفة الصحيحة وطريقها السليم ، اي من الايمان بمنطق الحس والعقل ، وليس كما قيل جهلا او عنادا : « ان الايمان بالله يبتدىء حيث تنتهي المعرفة » .

وبكلام آخر اقرب الى فهم التجريبيين : ان البحث والنظر لمعرفة الله سبحانه بحث ذاتي تأملي ، وفلسفي عقلي ، ما في ذلك ريب ، ولكنه في الوقت نفسه بحث عن العلة الاولية للطبيعة ، والسبب الموجب لوجودها ، وعليه يكون البحث لمعرفته تعالى بحثا لفلسفة الطبيعة نفسها، واقامة نظرة عامة عنها تشمل كلياتها وجزئياتها ، وظواهرها وحقائقها ، فاذا اعتمد الايمان بالله — مع ذلك — على شواهد من الطبيعة تكون مقدمات هذا الايمان بما فيها التفكير النظري المعتمد على الواقع ، تكون مقدمات الايمان بالله في مجموعها طبيعية او شبه طبيعية ، ويكون الايمان بوجوده سبحانه تماما كالايمان بوجود الطبيعة ، وانكار وجوده كانكار وجودها .

وقد اطلقوا اسم علم الربوبية الطبيعي على البحث لمعرفته تعالى بالنظر الى اعتماده على منطق الحس وشهادته بوجود الطبيعة وروعتها ، وايضا اطلقوا عليه اسم علم الربوبية الفلسفي بلحاظ حكم العقل بمبدأ العلية واستحالة تسلسل العلل ، ولك ان تقول : هو بحث علمي فلسفي باعتبار الامرين معا .

٢ — **من اوجه الرد على التجريبيين** الذين حصروا طريق المعرفة بالتجربة والخبرة الحسية : ان هذا الحصر لا دليل عليه من التجربة والخبرة الحسية .. فأية حاسة من الحواس الخمس شهدت وادركت هذا « الحصر » ؟.. ابدا ولا واحدة .. نقول هذا ردا عليهم بمنطقهم ، حيث نفوا مبدأ العلية لانهم ما رأوه بالعين ولا لمسوه باليد ، وفي الوقت نفسه يردون بالوهم على من يستدل ببداهة العقل !.

٣ ــ لو نفينا مبدأ العلية ــ كما زعم التجريبيون ــ لانهارت قواعد العلم بشتى انواعه ، وما امكن اليقين بشيء اسمه حق وصواب ، وسيطر مبدأ الصدفة والاتفاق على كل شيء .. ومن هنا قال فيلسوف كبير : ان هذه النظرية اعظم فتنة ابتدعها الشيطان ، وتشبث بها المعرضون عن الحق .. وقال الفيلسوف الالماني ليبنتز : « لا واقع يمكن ان يكون حقا او موجودا . ولا حكم يمكن ان يكون حقا الا وتكون هناك علة كافية لكونه كذلك ، وان كانت العلل في الغالب لا يمكن ان تكون معروفة لنا » .

٤ ــ ان الحواس تختلف باختلاف الافراد ، بل ان حواس الفرد الواحد تختلف بحسب ظروفه واحواله ، فاذا حصرنا المعرفة بشهادة الحواس كان معنى ذلك ان المعرفة خاصة وفردية ، وانه لا قواعد كلية ، وقوانين عامة تضم الوقائع وتنظمها ، وبالتالي انكار العلوم من الاساس .

٥ ــ ان كثيرا من الكائنات الطبيعية تبدو لاعيننا ثابتة ، وهي في واقعها سريعة الحركة ... كما ان كثيرا منها لا يمكن ان تراه العين بحال كالطاقة تتحول الى مادة ، او تتحول المادة اليها ، قال علماء الطبيعة : ان اشياء الكون في حقيقتها ليست طبق ما نراه من مظاهرها المجسمة وانما هي في الواقع مجرد مظاهر وحوادث سريعة التتابع ، كما جاء في نظرية النسبية لانيشتين .

وقال الدكتور فؤاد صروف في مقال نشرته مجلة عالم الفكر الكويتية في العدد الثاني من المجلد الثاني : « ان علماء الطبيعة في هذا العصر رأوا بعقولهم ما لا يمكن ان يروه بعيونهم ، او بمصوراتهم الضوئية ، وقد انالهم ذلك فهما جديدا لامور كانت غامضة عليهم من قبل » .

آمن علماء الطبيعة باسرار لا يمكن ان تراها العيون ، ولا ان يتبينها

المجهر المألوف « ولا المجهر الكهربي ، ولا مرقب هيل ، وهو اكبر مرقب في العالم كله ، ولا تكشف عنها الاشعة السينية » ــ كما جاء في المقال المشار اليه ــ آمن علماء الطبيعة بهذه الاسرار التي يستحيل ان ترى بحال من الاحوال ، آمنوا بعالم الغيب ، لانهم رأوه بعقولهم فقط لا غير، واخذ التجريبيون والماديون والواقعيون والشيوعيون كلهم اخذوا بقول علماء الطبيعة ، وايمانهم بالغيب الذي لا يمكن ان تراه العيون ولا المصورات الضوئية .. ولكنهم في الوقت نفسه كذبوا المؤمنين بالله ، لا لشيء الا لان الايمان بالله ايمان بالغيب الــذي لا يمكن ان تراه العيون ولا المصورات الضوئية ... فانكروا على المؤمنين ما اعترفوا به لعلماء الطبيعة، ونقضوا هناك ما ابرموه هنا .. فان كان نظر العقل حقـا وصوابا فهو لا يقبـل التخصيص بفرد او بفئة ، وان كان خطأ وضلالا فكذلك .

وان قال قائل : ان لدى علماء الطبيعة مختبرات فنية تشهد للعقــول بالغيب الذي لا يرى بحال ، وليس لدى المؤمنين مختبرات او مصانع ــ **قلنا في جوابه** : ان الكون العجيب المتقن هو المصنع والمختبر الاعظم الذي يشهد لكل ذي لب بوجود صانع الكون العليم الحكيم .. ومن البداهة بمكان ان مختبر العلماء لا يرشدهم الى عالم الغيب الا اذا تدبروه واتنبهوا اليه ، وامعنوا فيه وفي ادواته ، وهكذا لا يرشد الكون الى خالقه الا اذا نظر الانسان فيه بقلبه وعقله ، لا بغروره وجهله : « كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون ــ ٣٨ ــ الروم » .

نحن والبرجماتيون :

البرجماتيــة مذهب جديد ، ولها في هذا العصر اتبــاع وانصار لا يحصون عددا ، وزعيمهم « وليم جميس » وتتلخص هذه الفلسفــة بان المعرفة في حقيقتها ليست مجرد العلم بالواقع ــ كما هو ــ بل هــي اداة للسلوك العملي الذي يدر النفع على صاحبه ايا كان نوع هذا السلــوك

ومهما تكن الوسائل المؤدية الى بلوغ الهدف المطلوب •• فما مـن شيء حسن في ذاته ، او قبيح في ذاته ، وانما يقاس الحسن بالمنافـع ، فسياسة الصناعة الحربية والتفرقة العنصرية ، والحروب العدوانية ، كل هذه ومـا اليها من احسن الحسن اذا درت الارباح ، وكدست الثروات •

لقد فاقت البرجماتية كل التيارات والفلسفات •• قال التجريبيون : اذا لم تعتمد الفكرة على التجربة فما هي بشيء ، والبرجماتيون يؤمنون بالتجربة ، ولكن على شرط المنفعة ، ويقولون : ان التجربة او الفكرة التي لا تجر نفعا ليست بشيء « وانما هي وهم في رأس صاحبهـا » حتى ولو كان مصدرها التجربة • (انظر كتاب نظرية المعرفة لزكي نجيب ص ٢٩) •

ومعنى هذا ان فكرة الاله والايمان بوجوده وهم في الرؤوس،وجهل في العقول ، وعمي في القلوب ، لان هذا الايمان لا ينشيء مصنعـا ، ولا يفتح مصرفا ، ولا يحتكر سوقا ، او يستعمر شعبا •• وايضا معنى هـذا انه لا فلسفة واخلاق ، ولا فنون وآداب ، ولا علم نفس وسياسةواجتماع، ولا مبادىء وقوانين ، او حرام وحلال ، ولا بطولات واعمال خالدات •• ابدا لا شيء الا المصانع والمعامل ، وما اليها مما يدر الارباح ، ويؤدي الى التوسع والسيطرة وتكديس الثروات ، ولـو على حساب المستضعفـين والمستضعفات •

ونشأت البرجماتية ، وترعرعت في احضان « العالم الحر » وجند لها الاذاعة والصحافة والسينما والتلفزيون ومكاتب الاذاعة وادمغة الفلاسفة واقلام الادباء ، وهدفه الاول ان يضفي طابع العلم والتقدم على نظـامه الرأسمالي ، وسياسته العدوانية في الشرق والغرب • وان ينفي الحـق والعلم عن كل ما يمت الى الانسانية بسبب ولكن ما من انسان في آسيـا وافريقيا واوروبا مستعد لأن يموت من اجل الرأسمالية، كماقال الفيلسوف الفرنسي « جاك ماريتان » • يريد ان هذه الرأسمالية لن تعيش الا عـلى

حساب الشعوب ومقدراتها ولكن الشعوب لن تخضع وتستسلم ، بل تقاوم وتثور دفاعا عن حياتها واقواتها .

وبعد ، فلا فرق ابدا بين العالم الشيوعي والعالم الحر ، ذاك يقول: لا نؤمن بالله ، لانه ايمان بالغيب ، وهذا يقول : لا نؤمن الا بحقول البترول واحتكار الاسواق والسلع ، والا بقنابل النابلم واجهزة التجسس .. والنتيجة واحدة من حيث الكفر والالحاد ، واذا الح العالم الحر على اسم الاله وذكره فانما يعني ، الاله المخلص للرأسمالية، والمحامي عنه وعنها ، ولا يعني إله الضعفاء والمشردين من ابناء فيتنام وفلسطين .

العلم يدعو الى الايمان بالله :

آمن كثير من علماء الطبيعة وغيرهم في هذا العصر بعد ان كانوا به من الجاحدين ، ورووا قصة هذا الايمان واسبابه ، وهي عين بحوثهم وتجاربهم لطبيعة الاشياء المادية ووظيفتها .. وقد جمع البعض طائفة من اقوالهم في كتاب باسم « الله يتجلى في عصر العلم » وترجم هذا الكتاب الى العديد من اللغات ومنها اللغة العربية في ١٧٠ صفحة ، وتحدثت عنه ، ونقلت منه في فصل خاص بكتاب « فلسفة المبدأ والمعاد » .

ووضع العقاد كتابا مستقلا في « عقائد المفكرين » . وهذا هو اسمه الكامل ، وفيهم رجال من علماء الطبيعة ، وفلاسفة وادباء واطباء ومهندسون وغيرهم .. وايضا تحدثت عن هذا الكتاب ، ونقلت منه في كتاب « الله والعقل » .

واخيرا قرأت مقالا مطولا وبالغ الاهمية للدكتور محمد عبد الهادي ابي ريدة بعنوان « الايمان بالله في عصر العلم » نشرته مجلة عالم الفكر الكويتية في العدد الاول من المجلد الاول ، وهو يغني ــ كما اعتقد ــ عن

كل ما كتب في اثبات الخالق حتى الآن ، فلقد عرض فيه نوع الادلة على وجود الله من عهد افلاطون الى اليوم ، واحسن العرض واوضح ، واجاد في التلخيص وجمع .. وفيما يلي نشير الى بعض ما جاء في هذا المقال وفي غيره مما قرأناه في الكتب الحديثة والصحف .

الفلسفة والتأمل العقلي :

تعتمد الفلسفة على التفكير والتأمل العقلي ، ومثال ذلك ان تقول : هذا الكون الذي نراه بالحس غير ثابت على حال حيث نشاهد فيه حدوثا وتغييرا وزوالا ، واذن لا بد له من علة ثابتة مستقرة والا لزم التسلسل الى ما لا نهاية ... وهذا الدليل يستند الى مبدأ العلية ، ومبدأ استحالة التسلسل في العلل ، وضرورة الانتهاء الى علة اولية لا تحول ولا تزول ، وهذان المبدآن عقليان .

مثال ثان للتأمل الفلسفي : للطبيعة نظام متقن ومحكم ، وهي تسير عليه منذ ملايين السنين ، ولا تحيد عنه بحال ، ومن اجل هذا امكن ضبطها وقياسها والاستفادة منها . وهذا يحتم وجود قوة عليا وراء الطبيعة مريدة قادرة ، وحكيمة عالمة ، وهي التي اتقنت واحكمت ، والا فكيف يجوز وجود فعل متقن محكم من غير عليم حكيم ؟.. ويعتمد هذا الدليل على مبدأ العلة الكافية لكل ما يحدث في العالم ، وان الصدفة باطلة لا يصح ان يفسر بها شيء كما هو الحق ، لان الصدفة لا تتكرر ، وتنفي الترابط بين الاشياء على وجه الاطلاق .

العلم والتجربة :

ويعتمد العلم بمعناه الحديث على الخبرة الحسية والعمل التجريبي الذي يرى بالعين ، ويلمس باليد ، ولا يتجاوزه الى العقل الا ضمن نطاق محدد ، وهو استكمال ما رأته الحواس ومعطياتها فقط لا غير ، ومثال

ذلك ان يكتشف علماء الطبيعة العناصر التي يقوم عليها الكيان الطبيعي ، وتتكون منها الكتلة المادية بشتى انواعها من الذرة الكيمائية التي لا يقع عليها الحس الى اكبر جرم ، وان يكتشفوا ايضا ان هذه العناصر ليست ازلية ولن تكون ابدية بل لها عمر محدد ، ومتى تم هذا الكشف جزموا تلقائيا بان الطبيعة حادثة .

العلماء المفكرون :

وقد استدل العلماء المفكرون في هذا العصر على وجود الله بالدليل التالي :

نحن ندرك وجود الكون ، ولكن كيف نفسر وجوده ونشأته ؟. هناك اربعة احتمالات عن هذا السؤال :

الاحتمال الاول : ان هذا الكون غير موجود في الواقع ، وان تصورنا لوجوده مجرد وهم وخيال !. وليس من شك ان هذا يخالف الواقع ، لان الوجود مستقل ومنفصل عن الذات التي تدركه .

الاحتمال الثاني : ان ينشأ هذا الكون من العدم وبلا سبب !.. وهذا مستحيل ، لان الصدفة لا تفسر لنا وجود العالم بما فيه من مادة وطاقة ، فكيف بالنظام الماثل والتنسيق الهائل في كل شيء ؟.. ان هذا يحتاج الى ادراك وقدرة ، وعلم وحكمة ، والمادة لا تنشيء شيئا من ذلك ، ولو تولدت الحياة من المادة نفسها لم يكن هناك تفرقة بين مادة ومادة ، وان تظهر الحياة في هذه دون تلك .. اجل ، قال العلماء :

« اذا بلغت المادة مبلغا معلوما من الاستعداد صلحت لحلول الحياة فيها ، وتهيأت لخدمتها ، مثلها في ذلك مثل الجهاز الذي يصلح بالتركيب، لقبول الكهرباء ، فان اجزاء الجهاز لا تتحرك الا اذا اجتمعت على النحو

الصالح لاستقبال التيار وتلبية حركاته ، وكذلك الاعضاء الجسدية لا تخلق الحياة ، وانما هي ظرف صالح لاستقبالها وتلبية حركاتها اذا تم تركيبها على النحو المعروف » • ومن هنا كان التفسير الآلي الميكانيكي لحركة المادة باطلا •

الاحتمال الثالث : ان الكون ازلي لا بداية له •• وهذا باطل حيث اكتشف العلم الحديث حتى الآن عناصر يبلغ عددها ١٠٢ ، وكل مادة عرفها الانسان تتكون من واحد او اكثر من هذه ال ١٠٢ [1] وبعد دراستها بدقة تبين لعلماء الطبيعة ان جميع هذه العناصر في سبيل الزوال ، ولكن بعضها يسير اليه بسرعة ، وبعضها ببطء ، وفي ضوء هذه الحقيقة قرروا ان العالم له بداية ونهاية ، وانه لا بد ان يزول بعد ان تتحقق الغاية من وجوده ، وقدروا عمر العالم ـــ على التقريب ـــ بحوالي خمسة بلايين من السنين •

واذا بطلت الاحتمالات الثلاثة تعين الرابع ، وهو ما نقله ابو ريدة عن « مونسما » في مقاله الذي اشرنا اليه وهو « لا بد لاصل الكون من خالق ازلي ليس له بداية ، عليم محيط بكل شيء قوي ليس لقدرته حدود، ولا بد ان يكون هذا الكون من صنع يديه » • وايضا نقل عنه ما نصه بالحرف :

« اذا كان هذا العالم المادي عاجزا عن ان يخلق نفسه ، او يحدد القوانين التي يخضع لها فلا بد ان يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادي، وتدل كل الشواهد على ان الخالق متصف بالعقل والحكمة والارادة •• واذن فالنتيجة المنطقية الحتمية التي يفرضها علينا العقل ليست مقصورة على ان لهذا الكون خالقا فحسب ، بل لا بد ان يكون هذا الخالق حكيما عليما قادرا على كل شيء كي يستطيع ان يخلق هذا الكون وينظمه

(١) ذكر احمد امين العراقي في آخر الجزء الثالث من كتاب التكامل في الاسلام ــ جدولا باسماء هذه العناصر .

ويدبره ، ولا بد ان يكون هذا الخالق دائم الوجـود تتجلى آياته في كل مكان » •

ان ايمان من آمن بالله عن طريق النظر في الكـون وفي الانسان ـ يكشف لنا بوضوح عن السر في قولـه تعالى : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » ان رجال العلم الطبيعي كغيرهم من العلماء وارباب المهن يهتمون فقط بما يتصل بوظيفتهم واختصاصهم ، ولا يفكرون في غيره الا عرضا وعند الضرورة ، ولكن علماء الطبيعة التقـوا على غير ميعاد مع الطريق المؤدية الى معرفة الله تعالى والايمان به ، ذلك بان الآفاق اي اقطار السموات والارض هي الموضوع الاساسي لبحوثهم، والميدان الفسيح لتجاربهم ، وهي في الوقت نفسه نقطة البداية والانطلاق الى العلم بوجود الله ، فانتهى بهم هذا اللقاء الى معرفته تعالى والايمـان به من حيث لا يريدون •• وصدق من قال : العلم يدعو الى الايمان • ومن اصدق من الله حديثا : « انما يخشى الله من عباده العلماء ـ ٢٨ فاطر » •

وفيما يلي نذكر فقرتين : احداهما لمثال من الآفاق التي اشارت اليها الآية ، وهو القمر ، والثانية للانسان وما يتصل به •

القمـر

في صيف سنة ١٩٦٩ هبط على سطح القمر رائدا الفضاء الامركيان: « ونج » و « اودين » وتعقبت ما كتب علماء الطبيعة حول رحلتهمـا •• واشير هنا الى ما قرأته في جريدة الاخبار المصرية عدد ٦ ـ ٢ ـ ١٩٧٠ ، فقد ترجمت هذه الجريدة في العـدد المذكور مقالا عن جريدة برافـدا السوفيتية لعالمين شيوعيين بارزين في العلوم الطبيعية ، وهما « م فاسين » و « واشرباكوف » السوفيتيان •• لقد اطلع هذان العالمان على النتـائج التي اعلنها العلماء الامركيون لدراسة تربة القمر والصورة التي اخذت له عن كثب . وقالا فيما قالا :

« ان الدراسة العلمية الحديثة ترفض كل النظريات الشائعة عن اصل القمر ، ولا تقبل الا تفسيرا واحدا ، وهو ان القمر مصنوع صنعا دقيقا ومحكما ، وان الذي صنعته قوة مذهلة تملك من الطاقات ما لا يملكه اي كائن من الكائنات .. ان الدراسة العلمية تبدأ بفكرة جديدة ، وتقول هذه الفكرة الجديدة : ان في القمر ظواهر يستحيل ان توجد بالصدفة .. كلا ، انها تمت بيد عالمة قادرة قد احكمت صنع القمر احكاما مذهلا » .

آمن الشيوعيون وغيرهم من الماديين آمنوا بالمادة ، وقالوا : هي الموجود الوحيد ، ولا إله الا هي ، وان الحياة والسمع والبصر والعقل وسائر الغرائز الانسانية والحيوانية ، وان نظام الكون ، وما فيه من ابداع واسرار ، كل ذلك وما اليه من الموجودات لا اساس له الا المادة ، ولا حول ولا قوة الا لها وحدها ، فهي الظاهر والباطن ، والاول والآخر، وفلسفوا هذا الألحاد بكل ما يملكون من منطق، ورفضوا القيم والاديان بشتى انواعها ، وزعموا ان العلم عدو الايمان بالله واليوم الآخر .. ولما تقدموا بعض الشيء في العلم الذي جعلوا منه عدوا لله ورسله ـ قادهم ، او قاد الكبار من علمائهم في الطبيعة والمادة قادهم « هذا العدو » مرغمين الى الايمان ، بمصدر هذا الكون وخالقه « العالم المريد » الذي يملك من الطاقات ما لا يملكه اي كائن من الكائنات » حتى المادة إله الشيوعيين والماديين ، وفوق ذلك اعلنوا الدليل المادي المحسوس على اثبات الخالق ليكون حجة بالغة قاطعة على جميع الميادين .. هذا ، وهم لا يعتبرون ان من علمهم اثبات الخالق الكائن وراء الطبيعة وفوق المادة ، بل العكس هو الصحيح .. فاين هي فلسفة ماركس ولينين ، وانجلز وستالين ؟ اين هي ؟ لقد ذهبت مع الهباء بنظرة صحيحة واحدة من العلم الى الآفاق .

ومهما شككت فاني لا اشك ابدا في ان هذين العالمين السوفيتيين : فاسين وباكوف، هما من اظهر المصاديق والافراد الذين عناهم الله بقوله :

« سنريهم آياتنا في الآفاق الخ .. » لقد فسرت هذه الآيـة الكريمة في التفسير الكاشف ، واطلت الكلام حولها بعض الشيء ، والآن ، وانا ارسم هذه الاحرف خطر لي ان اعطف على ما اسلفت هذا المعنى ، وهو ان الله سبحانه قد تحدى بهذه الآية ـ فيمن تحدى ـ العلماء الماديين الذين علم الله انهم سيوجدون بعد اكثر من الف سنة ، بل والوف السنين من نزول كتابه الكريم ، وبعد ان يزدادوا علما بالكون ، تحداهم بما يريهم من آياته في الآفاق .. وقد اراهم .. فما استطاعوا الا الاذعان لها والتسليم بهـا .. ونحن على علم اليقين ان المستقبل لعقيدة التوحيد لان سبيلها سبيـل العلم ، والامل به هو الامل بها بالذات .

تذكرت ـ وانا اقرأ ما قاله العالمان السوفيتيان ـ كلمة لابن عربـي في الفتوحات المكية ، وهي : انك لا تقدر ان تنكر ما ترى ، كما انـك لا تقدر ان تجهل ما تعلم ، وانت ترى الوجود ، وتعلم به علم اليقين ، وهـو حروف وكلمات وسور وآيات تنطق بوجود كاتبهـا ، وهو الله وان لم تره ، فالوجود قرآن الله الكبير الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه .

شيء آخر تجدر الاشارة اليه ، وهو : هل الذي تحدى علماء الطبيعة وغيرهم منذ نزول القرآن الى آخر يوم ، وقال : « سنريهم آياتنا في الآفاق وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق » هل الذي قال هذا بعزم وحزم هو الله خالق الكون والآفاق ، او محمد الذي لا يقرأ ولا يكتب ؟.

وكيف يجرأ محمد على هذا القول ! ومن اين اخذ علمه بالشمس والقمر وغيرهما من الكواكب ؟. هل اخذه من الصحراء ، ام من ابـي جهل وبحيرة الراهب ، ام من التـوراة والانجيل ، ام صعـد الى القمر والمريخ ؟ ابدا . لا تفسير الا الوحي من القادر العليم ، والا الاعجاز على يد النبي العظيم .

الانسان :

اشرنا في الفقرة السابقة الى مثال من الآفاق ، وهو القمر ، ونشير في هذه الفقرة الى الانسان ، قال تعالى : « يخلقكم في بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث ٦ ـ الزمر » . وقال : « لقد خلقنا الانسان في احسن تقويم ٤ ـ التين » .

وقال : « وفي انفسكم افلا تبصرون ٢١ ـ الذاريات » . يقول سبحانه في هذه الآيات وغيرها ، يقول للجاحد : الم تنظر الى نفسك ، وتفكر في مبدئك وتقلبك خلقا بعد خلق ، ومن طور الى طور ، وتنظر الى اعضائك وجوارحك وسمعك وبصرك وعقلك وبيانك وفطنتك وقدرتك ... الى غير ذلك من صفاتك الروحية والجسدية ، ثم تسأل عقلك وبصيرتك : هل اوجدت انت ذلك بنفسك ، او وجد صدفة ومن غير علة، او ان وراءه خالقا قديرا وعظيما ؟ ولو لم يكن في الكون الا انت وحدك فقط لا غير لوجدت من نفسك الف دليل ودليل على من انشأك وابدعك.

ان في الانسان آيات واسرارا لا يبلغها الاحصاء ، وكلما اكتشف العلم منها سرا خفيت عليه مئات والوف تماما كالكون .. ومن هنا قال له من قال :

« وفيك انطوى العالم الاكبر » . وكما اكتشف العلم الحديث بعض اسرار القمر وغيره من الآفاق فقد اكتشف ايضا بعض ما في الانسان من سر . وآخر ما قرأت في هذا الباب مقالا نشرته مجلة روز اليوسف المصرية عدد ٧ ـ ٤ ـ ١٩٦٩ ، جاء فيه :

لقد اكتشف العلماء في هذا العصر ان في جسم الانسان بلايين الملايين من الخلايا .. وتبين لهم ان هذه الخلايا مجتمع من المخلوقات

المختلفة ، لا ترى الواحدة منها لشدة صغرها الا بالميكرسكوب ، ويبلغ عدد هذه الخلايا عشرة اضعاف عدد البشر ، وكلها تعيش في دم الانسان مدة اربعة اشهر فقط ، ويحل غيرها محلها وبمقدارها بحيث يكون عدد الجيل اللاحق كعدد الجيل السابق لا يزيد ولا ينقص ، وبعض هذه الخلايا على هيئة ثعلب ، وبعضها على شكل فيل ، وبعضها تماما كالتمساح الخ .. وهنا العجب ، العجب من هذا التنوع .. ومن كثرة العدد .. والاتفاق فيه دون زيادة او نقصان .. هل كل ذلك من صنع المادة العمياء او من باب الصدفة ، او من صنيع القدير العليم ؟. فتعالى الله الملك الحق لا إله الا هو رب العرش الكريم .

وصدق الفيلسوف الانكليزي جون لوك حيث يقول : صحيح ان الله لم يخلق الايمان فينا خلقا : ولم يطبع في عقولنا حروفا نستطيع ان نقرأ وجوده بها ، ولكن لم يجعل وجوده بلا دليل يشهد له ... فلقد اودع فينا ملكات وقوى تدل عليه دلالة كافية وافية ، ونحن لا نحتاج الى برهان يدل على وجوده اوضح من ذلك .

ولا نستطيع ان نشكو من جهلنا به ما دمنا نحمل ذواتنا معنا ، فانه قد هيأ لنا بذلك كل ما يلزم لمعرفته وزيادة .. وهذا شيء واضح كاليقين الرياضي .. ولا يحتاج ابدا الى اكثر من التفكير والانتباه الى وجوده اليقين ، فنبرهن به على وجود الله باصدق برهان واوضحه ، تماما كما تتنبه ونفكر ونستدل على مسائل نحتاج اليها في حياتنا اليومية ، لانها قابلة في ذاتها للبرهنة الواضحة .

الانسان والقرد :

وتسأل : ان داروين واتباعه يقولون : ان الانسان وجد اول ما وجد على غير صورته التي هو عليها الآن ، ثم انتقل منها الى نوع آخر حتى انتهى الى القرد ، ومنه الى صورته الحالية ؟.

الجـواب : قد نعرف بالتحليل في المختبر ما في الانسان مـن مواد كيماوية ، اما كيف وجد ؟، وعلى اية هيئة كان ؟ فلا تجيب المختبرات عن هذا السؤال ، اما المشاهدة فاي مخلوق رأى وشاهد بداية خلق ابيه ؟.. ولا شيء في الحفريات يدل دلالة واضحة ومقنعة على اصل الانسان ، فلم يبق الا نظرية التطور ، وهي من غير شك جديرة بالعناية ، ولكنها لم تفسر نشأة الحياة تفسيرا علميا ... على انها لا تتصادم مع وجود خالق لهـذا الكون .

الى هنا ، وندع الكلام عن نظرية دارون الى شاب له شهرته الادبية والثقافية ، ومؤلفاته الكثيرة منتشرة بين ابناء الجيل ذكورا واناثا وهـو الدكتور مصطفى محمود المصري المحرر بمجلة صباح الخير الآن ، وقبلها بمجلة روز اليوسف ، وقد مر هذا الشاب بدور الشك والالحاد ، والـف كتابا اسماه الله والانسان أنكر فيه وجود الخالق ... ونقضته بكتـاب « الله والعقل » ثم آمن مصطفى محمود عن اقتناع ببينات نشرها ، بـل وكرر نشرها في الصحف وفي اكثر من كتاب ، من ذلـك كتابه « القرآن محاولة لفهـم عصري » . ويتلخص ما قاله في هذا الكتاب عـن نظرية دارون ، بما يلي :

ان هذه النظرية ترتكز على امرين : **الاول** : ان الحيوانات انحدرت بكاملها من اصل واحد .. ثم اختلفت نتيجة لاختلاف الظروف والبيئات، فالانسان ــ مثلا ــ في المناطق الباردة مكتنز اللحم بينما هو في المنـاطق الحارة نحيـل هزيل ... وكذلـك سائر الحيـوانات تتكيف ببيئتهـا وظروفها .

الثاني : ان كـل حيوان تطور من نوع الى نوع نتيجـة لبواعث وعوامل من داخله ، ومن خارجه .

وقال مصطفى محمود في الرد على ذلك بان العلماء امضوا بعد دارون سنين وسنين يمحصون ويعيدون النظر في قوله ، فكانت نتيجة بحثهم وتمحيصهم ان التطور في عالم النبات وعالم الحيوان معلول لعلة خارجة عن جنس النبات والحيوان ، ومخالفة لما فيهما .. وقد لمسنا آثار هذه العلة الخارجة في ورق الشجر ، والوان الزهر ، واجنحة الفراش ، وريش الطاووس ، واعظم من هذا كله ان بعض الاشجار الصحراوية تحمل ثمرا يطير بأجنحته محلقا في الهواء .. كل هذا ، وغير هذا لا يفسره الا القادر الذي لا تدركه الابصار ، وهو يدرك الابصار ، وهو اللطيف الخبير .

ثم قال مصطفى محمود : ان دارون في نظريته اشبه بقاصر النظر الذي رأى سيارة تسير دون ان يرى السائق ، فظن انها تنطلق بفعل الآلات المادية التي في داخلها فقط دون اي اثر للسائق .

وبعد ، فلا ادري : كيف رضي دارون واتباع دارون ان يضعوا الانسان بين القردة والحيوان ، وهو سيد الخلائق بما يتمتع به من ادراك وملكات ، وينفرد به من نسق في القيم الخلقية والجمالية !.. قال الله ، جلت حكمته : « ولقد كرمنا بني آدم ــ ٧٠ الاسراء » وقال دارون : كلا، انهم قرود ابناء قرود !

على ان دارون كان يؤمن بوجود الله فقد اشتهر عنه انه قال : « يبدو لي استحالة القول بان هذا الكون العجيب العظيم وما انطوى عليه من شعورنا الواعي ــ انما كان وليد الصدفة ، ان هذا الكون هو اكبر سند للقول بوجود الله » . انظر كتاب الانسان في القرآن للعقاد .

والخلاصة : ان الايمان بالله ليس ثمرة للوهم والتقليد ، ولا لتفسير ما نجهل تفسيره من ظواهر الطبيعة ، ولا لخوف به المردة الطغاة ، ولا

لنخدر به المستضعفين من الشعوب ، ولا فرارا من حيرة العقل ، ولا ارضاء لحاجة روحية وتعليلا لامنية نفسية ، وانما هو ثمرة حتمية ، لمنطق الحس والعقل ، وشهادة البصر والبصيرة ، ولا شيء اصدق في الدلالة على هذه الحقيقة من نهيه تعالى في العديد من آياته عن اتباع الحدس والظن،وامره بالاعتماد على البصر والبصيرة كطريق الى معرفته والايمان بعظمته ، كما اوضحنا ذلك ، واثبتناه بالارقام •• ومن جحد وكفر فقد خالف الحق عنادا له ، او جهلا به لتقصيره في البحث والنظر ، او لقصوره في العقل والفكر •

صفاته تعالى

التوحيد ان لا تتوهمه

تكلم الفلاسفة وعلماء الكلام عن صفاته تعالى ، واطالوا ، ولخصنا اقوالهم في كتاب معالم الفلسفة الاسلامية ، وكتاب فلسفة المبدأ والمعاد ، ونقتصر هنا على ما جاء في القرآن الكريم ، ومن تتبع آياته يجد الكثير منها يشير الى الادلة على وجود الله سبحانه ، ولا يجد آية واحدة تشير من قريب او بعيد الى تحديد ذاته القدسية وبيان كنهها وحقيقتها ، وقد سأل فرعون عن ذلك ، فاجابه موسى بالآثار والافعال ، كما في الآية ٢٣ من الشعراء : « قال فرعون ومارب العالمين قال رب السموات والارض ».

وفي الآية ٤٩ من طه : « قال فمن ربكما يا موسى قال ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » . وهذا امر بديهي وطبيعي ، لان العقل الحادث المحدود يستحيل في حقه ان يحيط بالازلي الابدي الذي لا اول لاوله ، ولا آخر لآخره ، ومن هنا قال امير المؤمنين (ع) : فكروا في خلق الله ، ولا تفكروا في ذات الله . وقال : التوحيدان لا تتوهمه . اي لا تتصوره بوهمك لان كل موهوم محدود . والله لا يحده شيء .

دليل الوصف :

وايضا من تتبع القرآن لا يجد فيه اثرا صريحا للاستدلال على ثبوت

صفة من صفاته تعالى غير التوحيد ، ونفي الشريك ، اما سائر الصفات كالعلم والقدرة والحياة ، وكثير غيرها فانه يذكرها ، ويخاطب الناس بها كشيء مسلم به ، ومفروغ منه ، والسر انه بعد ان قام الدليل القطعي على وجود واجب الوجود بالذات ينتج حتما انه جامع لصفات الجلال والكمال ، وانها في حقيقتها فوق صفات الممكن الحادث بالغا ما بلغ من العظمة ، لان صفات كل شيء بحسبه .

وبكلمة ان هذا الكون العجيب بابداعه ونظامه يحمل الدلائل القطعية على قدرة المبدع وعلمه ، وارادته وحكمته ، تماما كما يحمل الدلائل على اصل وجوده ..

وعليه فاي داع لاطالة الكلام عن صفاته تعالى وتقسيمها الى اقسام ، والاستدلال عليها بالقياسات والاستنتاجات ، وما الى ذلك مما هو مدون في كتب الفلسفة وعلم الكلام .

العلة اكمل من المعلول

وتسأل : ان الفعل يدل على وجود الفاعل ، وايضا يدل على صفاته التي تتجلى في الفعل ، ويظهر اثرها للعيان ، اما الصفات الاخرى فلا يدل عليها الفعل ـ مثلا ـ حسن الخط او جودة البناء يدل على ان الكاتب يتقن فن الكتابة ، ولكنه لا يدل بحال على ان الكاتب او الباني كريم وشجاع ، او جميل وبليغ ، وهذا هو مراد من قال : العلة اكمل من المعلول. واذن فلا بد ان نلتمس المعرفة بسائر صفاته ، نلتمسها من طريق آخر غير النظر في الكون وفي انفسنا ، ولا طريق سوى العقل واستنتاجه .

الجواب : اما الصفات التي تضاف الى الذات القدسية ، ولا تتحد معها كالخالق والرازق والرحمن والرحيم والمحيي والمميت ـ فانها تعرف

من الفعل . وكذا بعض الصفات الذاتية كالحياة والعلم والقدرة . يظهر اثرها في خلقه تعالى وافعاله ، وما عدا ذلك فان ثبت ببديهة العقل ، او بآية منزلة او رواية متواترة آمنا به ايماننا بالله ، والا وجب السكوت عما سكت الله عنه .. اجل : يجب الاعتقاد اجمالا بان الله متصف بجميع ما يليق بقدسيته وعظمته ، اما التفصيل فنحن غير مسؤولين عنه ، ولا محاسبين عليه .. حتى العلم بالحكمة من وجود العالم ، وخلق الانسان .. بل والعلم بان الانسان مسير ، او مخير .

ابدا .. لا يجب البحث والنظر الا من اجل الايمان بالله ، واليوم الآخر وبالنبي والولاية له ، ولمن له العصمة من أهل بيته ، والا العلم اجتهادا ، او تقليدا بما يجب فعله او تركه على اساس الوحي والنص من كتاب الله وسنة نبيه .. وبكلمة واحدة ان الذي تجب معرفته عقلا هو طريق النجاة من الهلكة فقط لا غير .

نفي الصفات :

لا يختلف اثنان من المسلمين في ان الله سبحانه يوصف بكل ما وصف به نفسه في كتابه العزيز ، وان عظمته في الكمال والجلال كما هي لا يحدها وصف ، ولا يدركها عقل ، وانها ازلية ابدية تماما كذاته القدسية ..

وانما الكلام والخلاف في ان الصفات العليا بأي معنى تنسب اليه تعالى ، وتطلق عليه : هل تنسب اليه ، جلت عظمته على انها شيء غير الذات ، وزائدة عليها وعلى كنهها تماما كما هي الحال في وصف الانسان بالعلم ، فان حقيقة الانسان حيوان ناطق ، وحقيقة العلم : الكشف عن الواقع ، فاذا وصفنا الانسان بالعلم فقد وصفناه بما هو زائد وخارج عن ذاته وطبيعته والا كان الانسان بما هو عالما من غير كسب واستفادة وبحث

ودرس ، وهذا خلاف الحس والوجدان هل وصف الله بالعلم وغيره كذلك وعلى هذه الحال ، او ان الله يوصف بالعلم والقدرة بمقتضى ذاته وحقيقته ، لا بشيء زائد عنها تماما كوصف الانسان بالانسانية ، والشجر بالشجرية ــ مثلا ــ قال الاشاعرة كل صفاته تعالى غير ذاته وزائدة عليها، ومعنى هذا ان ذاته بما هي لا تقتضي العلم والقدرة ونحوهما من الكمال تماما كما ان ذات الانسان لا تقتضي العلم .. وقد تخطوا بذلك حدود التوحيد حيث يلزمهم القول بتعدد القديم ، كما تخطوا حدود العدل في قولهم بالجبر .. وما لنا ولهم وندعهم وشأنهم .

وذهب اهل العدل والتوحيد الى انه لا صفات لذات الله تزيد على ذاته ، وان وصفه بالعلم والقدرة كوصف الانسان بالانسانية ، والشجر بالشجرية ، لان ذاته تعالى بما هي وبطبعها تقتضي العلم والقدرة ، بل هي عين العلم والقدرة ، كما ان الانسانية عين الانسان ، لان كماله تعالى ذاتي لاكسبي ، ومطلق غير مقيد بشيء دون شيء ، وجهة دون جهة ، وانه بسوجب هذا الكمال الذاتي المطلق غني عن كل شيء يزيد عن ذاته وحقيقته . ولماذا الزيادة وما هو الداعي اليها ما دامت الذات القدسية كاملة بنفسها غنية من كل وجه وهل نحتاج الى الزائد لنكمل به الكامل ونتمم التام ؟

وعلى هذا اذا اطلقت صفات الكمال عليه تعالى كالعالم والقادر فيجب ان يراد بها نفس الذات القدسية التي تقدر على كل شيء وتعلم كل شيء تماما كما يراد من كلمة « الله » وكل وصف جاء في القرآن ، وعلى ألسنة الراسخين في العلم فان المراد منه هذا المعنى بالخصوص .. اما الصفات المنفية عن ذاته تعالى في كلام امير المؤمنين وغيره من الائمة الاطهار (ع) فهي الاحوال الخارجة عن الذات ، والزائدة عليها، وتعرض لها بسبب من الاسباب ، تنفى هذه عنه ، لانها من صفات المخلوقين دون الخالق .

وتسأل : كيف تتصور وحدة الذات مع تعدد الصفات ؟ وهل هـذا الا كقول من قال : الاب والابن وروح القدس إله واحد .

واجاب البعض بان الصفات بالنسبة اليـه تعالى متعددة مفهومـا متحدة مصداقا .

وهذا الجواب ـ كما نرى ـ لا يحل الاشكال ، لان صدق المفاهيم العديدة على شيء واحد يستدعي ان تكون به حيثيات عديدة ، فيقـال : هو عالم ، لصدق مفهوم العلم عليه ، وقادر لصدق مفهوم القدرة .. والله تعالى واحد من كل وجه ، لا حيثيات له وجهات .. اجل ، يقال : هو علم لان العلم ذاتي له ، وهو عالم ، لانه يعلم كل شيء ، ولكن الجهـة هنـا واحدة ، وهي العلم .. والاولى في الجواب : انه لا مصداق ولا مفاهيم ، ولا حيثيات وجهات .. لا شيء على الاطلاق الا واجب الوجود الكـامل المطلق من كل وجه ، وان التعدد انما هو في انواع الكمال واقسامه ، لا في ذات الكامل المطلق الذي هو المبدأ الاول لكل كمال .. وبتعبير ثـان كما ان تعدد المخلوقات لا يتنافى مع وحدة الخالق كذلك تعدد الكمالات لا يتنافى مع وحدة مبدئها ومصدرها .

انما هو إله واحد :

الطبيعة واحدة لوجود الترابط والأئتلاف بين اجزائها ، والترتيب الدقيق المحكم ، قال الملا صدرا في الاسفار : « ان مجموع العالـم من حيث هو مجموع شخص واحد ، له وحدة طبيعية ، وليست وحدته كوحدة اشياء متغايرة اتفـق ان صار بالاجتماع والانضمام كشيء واحد مثـل اجتماع البيت من اللبنات والعسكر من افراد ، وذلك بان اجزاء العـالم بينها علاقة ذاتية لانها حاصلـة على الترتيب العلي والمعلولي » ومثالـه الارض فان ثبوتها في مكانها معلول عن ثبوت الشمس في مقرها، وثبوت

الشمس في مقرها معلول عن ثبوت غيرها من الكواكب في اماكنها ومن اجل هذا كانت القوانين التي تحكم اي جزء من اجزاء الطبيعة هي بذاتها تحكم الاجزاء الاخرى ، وان دل هذا التدبير الواحد على شيء فانما يدل على ان المدبر واحد ، ولو كان اكثر لتعدد التدبير وتباين ..

وهذا هو المراد بقوله تعالى : « وما كان معه من إله اذن لذهب كل إله بما خلق ٩١ ــ المؤمنون » . ومثله او قريب منه قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ٢٢ ــ الأنبياء » اي لو تعددت الآلهة في الارض والسماء لما انتظم امر من امور الكون . لانصراف الآلهة عن تدبيره الى الصراع على السلطة والحدود .

وبتعبير واضح ، ومنطق اوضح : لو وجد إلهان فلا يخلو : اما ان يكون احدهما قادرا على تدبير العالم ، واما ان لا يكون ، فان كان قادرا كان وجود الثاني عبثا ولزوم ما لا يلزم ، وان لم يكن قادرا فلا يصلح للالوهية لعجزه من جهة ، وعبث وجوده من جهة ثانية .. ومن هنا عندما سئل الامام الصادق (ع) عن الدليل على ان الله واحد قال : ما بالخلق من حاجة الى اكثر . وقال الفيلسوف الالماني « كنت » : ان الطبيعة واحدة ، واجزاؤها مترابطة ، واذا كان لكل كوكب وجرم قانون خاص فان هناك قانونا يشمل الجميع ، وهذه الوحدة في القانون والترابط تدل على تنظيم واحد ، ومنظم واحد .

حسبي الله :

وهذا الذي اقتصرنا عليه في الدلالة على التوحيد وغيره من صفات الجلال كاف للعلم بها ، ومؤد للغرض المطلوب شرعا وعقلا . وما زاد فتكثير الفاظ ومضيعة للوقت .. وهناك امر هام وعظيم جدا يتصل مباشرة بكلمة التوحيد وعقياته ، ولا ينبغي اهماله بحال .. ولكن ،

وللاسف ، اهمله علماء الكلام والفلاسفة الموحدون فيما اطلعت عليه من كلامهم مع انهم سودوا الصفحات الطوال في « ان قلت قلت » وما اشبه!.. وياليتهم اقتصروا في اثبات التوحيد على الدليل الذي استدل به سبحانه على نفي الشريك له ، وفي غيره من الصفات على ما ثبت ببديهة العقل وتواتر به النقل .. ولكن ارادوا ان يفلسفوا العقيدة على اساس التصورات والتخيلات .

ومهما يكن ، فان الامر الهام الذي اشرنا اليه هو المعاني الجليلة السامية التي تنطوي عليها ، وتوحي بها كلمة التوحيد ، واليك بعضها :

لقد اختص الاسلام عن سائر الاديان باسم دين التوحيد : وافترق عنها بالتشدد في انكار الشرك ، والتنزيه عن كل شائبة من شوائبه .. وتميز المسلم عن غيره بكلمة « لا إله الا الله » كما تميز النصراني بجعل الصليب او عمل اشارته بيده على صدره مع الفارق العظيم في ان الصليب والتصليب في النصرانية شعار وكفى ، اما كلمة التوحيد في الاسلام فهي منهج عملي ، وشريعة للحياة ، كما هي عقيدة بأدق ما فيها من معنى .

ان كلمة لا إله الا الله مبدأ إلهي انساني يهدف الى نجاة الانسان في حياته الفانية والباقية ، ويحفظ له كرامته واستقلاله في شخصيته ، ولا يجعل لاحد عليه سلطانا الا للحق وحده الذي يتساوى فيه الجميع ، فالجاه والمال واشياء الدنيا كلها ليست بآلهة تعبد ، ولا بشيء يذكر الا اذا كانت خالصة لوجه الله ، وكل من ترجوه وما ترجوه ، وتتوكل عليه فهو هباء الا الله فهو كافيك ومغنيك : « رب المشرق والمغرب لا إله الا هو فاتخذه وكيلا ـ ٩ المزمل » . اي توكل على الله وحده لانه لا معين سواه .. وخير ما قرأت في تحديد المتوكل انه الذي لا يعتد بنفسه اطلاقا ، بل يعمل بنشاط ، فاذا نجح ارجع نجاحه الى الله ، لا الى ثمرة يده ، وسمى نجاحه توفيقا من الله وبحوله وقوته ، لا بذكائه هو وقدرته .

ويستحيل عقلا وواقعا ان يخلص الدين او الضمير ، ويصفو من الاكدار والاقذار الا مع عقيدة التوحيد ، والايمان بانه لا احد يملك مع الله شيئا الا ما ملكه ، ومتى صدق هذا الايمان ، واستقام في قلب اي انسان احب وتسامح ، واخلص وتواضع ، وضحى وتعاون ، وتنزه عن رذيلة الحقد والحسد والخيانة ، والكبرياء والغرور ، وبذل قصارى الجهد لمرضاة الله والحق ، ومن اجل هذا سميت كلمة لا إله الا الله كلمة التوحيد ، وكلمة الاخلاص ، وكلمة التقوى ، ولنا ان نسميها ايضا كلمة التحرير وفي الحديث الشريف : « خير ما جئت به انا والنبيون من قبلي هي كلمة « لا إله الا الله » .

وفي عقيدتي وعقيدة كل واع ان الناس لو آمنوا بكلمة التوحيد ، واتخذوها منهجا في سلوكهم لما عرفوا الازمات والمشكلات الخاصة والعامة ولا الحرب الباردة والساخنة ولا انصرفت العقول والاموال والاعمال الى الخراب والدمار والضياع ، بل تعاون كل انسان مع اخيه الانسان ليعيشوا جميعا في هناء وامان .

قال عبد الرحمن عزام في الرسالة الخالدة : « المؤمن الموحد يجد حسابه مع الله مباشرة ، فيرفعه اليه وحده ، فهو لا يكون ظالما ، لانه يعارض بالظلم صفة من صفات الله ، وهي العدل ، وهو لا يكون غليظا قاسيا لانه يعلم ان سيده رحمن رحيم ، ولا يكون كاذبا ولا منافقا ولا مخادعا لان حسابه مع الله الخبير العليم ، ولا يكون ذليلا او جبانا ، لانه يعلم ان الامر بيد الله وحده ، وهكذا اذا استرسلنا في تعداد النقائص نجد انه قد حيل بينها وبين المؤمن الموحد بحجاب من التوحيد » .

الخير والشر

هذه المسألة :

مسألة الخير والشر التي نتكلم عنها هنا هي غير مسألة : هل الانسان مسير او مخير ، ويأتي الكلام عنها .. لان موضوع الاولى يتناول الظواهر الطبيعية ، وغيرها مما لا يتصل بارادة الانسان واختياره من قريب او بعيد ، اما موضوع المسألة الثانية فهو خاص بافعال الانسان الاختيارية .

ما قيل حول الخير والشر :

للفلاسفة وغيرهم اقوال متضاربة حول الخير والشر ، فمنهم من قال : لا وجود لهما بالذات . بل هما من الامور النسبية ، فرب شيء يكون خيرا عند انسان وشرا عند آخر .. كل بحسب شعوره وظروفه وتقديره، وعلى ذلك الكثير من اهل هذا العصر .

ويلاحظ بان هذا القول ان صدق في شيء فانه لا يصدق في كل شيء .. فالصحة ــ مثلا ــ خير عند جميع الناس بل يطلقون عليها بالخصوص كلمة خير بلا قرينة معينة ، وذلك حين يقول احدهم للآخر : كيف انت ؟ ويجيب المخاطب : بخير . فيفهم السامع اول ما يفهم الصحة والسلامة من كلمة خير ولو كانت الصحة خيرا عند انسان دون آخر لما فهم السامع هذا المعنى من كلمة خير الا مع القرينة .

وقال ثان : الخير بذاته موجـود ، وهو كل ما فيه نفـع وصلاح ، والشر بذاته موجود ايضا ، وهو كل ما فيه ضرر وفساد ٠

ويلاحظ بان هذا اشبه بتفسير الماء بالماء لان النفع والصلاح يحتاج الى تفسير وتحديد ، وكذلك الضر والنفع ٠٠ اذ رب صلاح عنـدك هو فساد عند غيرك ٠

ثم جاء من يقول : علينا ان نتخلص من جميع الاقوال والآراء فـي الخير والشر ، وغيرهما من القيم ، وان نعالج كـل شيء ، وبالخصوص العلوم الانسانية معالجة صحيحة ، وندرسه دراسة موضوعية علمية ، ثم نسجل خصائصه وصفاته بصدق وامانة دون ان ننقده ونبدي رأينا فيه ، ونحكم عليه بخير او بشر ، وحسن او قبح ، لان الاحكام ــ في الغالب ــ تكون مغرضة وموجهة بدوافع شخصية ٠

ويلاحظ بان هذه السلبية وهذا التهرب من مواجهة الحقيقةوالواقع يتنافى مع الدراسة الموضوعية العلمية ، لان الغرض من هذه الدراسة هو ان نقطف ثمرها ونعلن للناس قيمة الشيء الذي درسناه دراسة علميـة ، وهل هي خير ام شر ، وحق ام باطل ؟٠ والا كانت الدراسة عقيمـة وبلا جدوى٠٠٠ وهل يكفي ان نعلم ونتكلم بان القنبلة الذرية او الهيدروجينية اذا القيت على مدينة فيها الملايين من الرجال والنساء والاطفال افنتهم عن آخرهم ، ثم نحتاط ونتورع عن الحكم بان هذا العمل شر وقبيـح واثم وجريمة ؟٠

معيار الخير والشر :

ليس من شك ان الشيء الذي يكون خيرا عند شخص دون آخر ، ويشبع رغباته دون سواه ــ لا ضابط له ولا مقياس ٠٠ ومن يقـدر ان يضبط ويحدد الميول الشخصية ؟٠ وبالخصوص الطائشة والجائرة ٠٠٠

ومثل ذلك في امتناع الضبط والتحديد ، الشيء الذي يرضي فئة دون فئة لوحدة في المشاعر ، ولكن هذا افضل من النوع الاول الذي يرضي الفرد فقط ، وكلما ازداد عدد الفئة والجماعة كان الخير النسبي افضل، وكذلك الشر .. وعلى اية حال فان الخير والشر النسبي خارج عن محل الكلام وموضوع البحث .

ان موضوع البحث هنا هو الخير والشر بذاته ، ولا شك في وجوده، والدليل عليه بديهة العقل ، فلقد اتفق الناس جميعا على ان الصحة خير ، والمرض شر ، والشجاعة فضيلة ، والجبن رذيلة ، والذكاء والفصاحة من المحسنات ، والبلادة والفهاهة على العكس ، وان الارض الطيبة اغلى واثمن من الارض الخبيثة ، الى غير ذلك مما لا يختلف فيه اثنان مهما تغيرت الظروف والاحوال ... ولو لم يكن للخير والشر وجود في ذاته لما وجدت الشرائع والقوانين ، ولا امكن التحاكم الى شيء ... هذا ، الى ان اهل الجاهلية حتى الهمج الرعاع يحرمون بفطرتهم نكاح الامهات والبنات ، والامم المتحضرة الملحدة منها وغير الملحدة تحرم السرقة والقتل ، وتوجب رد الامانة ، ووفاء الدين ، واي شيء ادل من هذا على وجود الخير والشر بذاته ؟.

اما معيار الخير والشر ، وتحديده ، تحديدا جامعا مانعا يرضي جميع الناس على اختلاف مشاربهم ومذاهبهم ، ويرفع ما بينهم من خلاف ، اما هذا التحديد فصعب وعسير ، لان الخير والشر على انواع ، منه طبيعي كالخصب والجدب ، ومنه عاطفي كالحقد واللؤم ، والحب والاخلاص ، ومنه اجتماعي كالتعاون او التناحر ، ومنه نظري فكري كالقوانين الانسانية التي تلائم الانسان من حيث هو انسان ، مثل كل انسان بريء حتى تثبت ادانته ، وكل مجرم يؤخذ بجرمه وجريرته .

ومن اجل هذا لا ينحصر طريق المعرفة بالخير والشر ، لا ينحصر هذا

الطريق بالبديهة كالامثلة المتقدمة ، بل هناك طرق اخرى ، منها ما اشار اليه الفيلسوف الالماني « كانت » بقولــه : « اذا اردت ان تعرف حسن الصفة من قبحها فانظر بعقلك ما ينجم عنها اذا هي عمت وانتشرت ؟• فاذا تمخضت عن خلل في الوجود والعلاقات الانسانية كالسرقة والقتل ــ مثلا فاعلم ان القبيح شيمتها » •

ومن هذه الطرق القلب السليم ••، ولكن تحديد هذا القلب بدقــة وصيغة واضحة تزيح عنه اللبس والغموض ــ صعب جدا ، وعليــه فانا نشير الى هذا القلب ، وندل عليه بضرب بعض الامثال من افراده كقلــب غاندي الــذي تمرد على عادات قومــه وبيئته في عبــادة البقرة ونجاسة المنبوذين ، وقلب الحنفاء الذين آمنوا بالله واليوم الآخر بفطرتهم الصافية في عصر الجاهلية الجهلاء ، ومنهم ورقة بن نوفل ، وعبدالله بن جحش ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو ، وقس بن ساعدة الايادي ، وذكر اهل التاريخ ان صفوان بن امية ومقيس السهمي حرما الخمر على نفسيهما بدافع الفطرة والغريزة •

ومن هؤلاء ونظائرهم يمكن ان نستخلص تحديدا لصاحب القلب السليم بانه الذي يملك شخصية قوية مستقلة لا يؤثر فيه اي شيء الا مــا انبثق من اعماقه ، واستوحاه من قلبه الصافي كما اودعه الله دون ان تلوثه التربية والتقاليد ، ومن خلال هذا القلب وحده ينظر الى الاشياء ويقارن بينها ، وعلى اساسه يرفض ما يرفض ، ويقبل ما يقبل ، واصحاب هــذا القلب موجودون وان كانوا اقل من القليل ، وهــم الذين عناهم اللــه بقوله : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ــ ١٨ الزمر » •

والخلاصة ان الخير والشر موجودان ، وهما يوجهان الانسان فــي سلوكه حسبما يعتقده بمفهوم الخير والشر ، وهو مصيب في معتقــده ان اتفق معه جميع الناس،او استوحاه من قلبه كان له قلب سليم، والا فهو

مخطىء ان تمخض عن خلل في الوجود والعلائق الانسانية على حد تعبير « كانت » .

الاسلام وتحديد الخير والشر :

وتسأل : لماذا لا نجد في كتاب الله وسنة نبيه تحديدا واضحا عن الحق والخير ، وعن الباطل والشر ، والذي نجده هو الامر والترغيب بذاك ، والنهي والبعد عن هذا كقوله تعالى : « فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ؟

واجاب الاستاذ عبد الكريم الخطيب عن هذا السؤال في كتاب القضاء والقدر ـ بما يتلخص ان الاسلام لا يحفل بالنظر الفلسفي والجدل اللفظي حول حقائق الاشياء وماهيتها ، وغايته اولا وآخرا هي تقويم الاخلاق وتربيتها ، واثارة مشاعر السمو النفسي في الانسان ، وربطه بالمجتمع برابط الحب والتعاون ... ومن اجل هذا كان حديث الاسلام عن الاخلاق عاما ومجملا لا يلتفت فيه الى ذاتيات الاخلاق ، بل الى آثارها في الحياة ومن هذا الباب « ويسألونك عن الروح قل الروح من امر ربي ـ ٨٤ الاسراء » وقوله : « يسألونك عن الاهلة قل هي مواقيت للناس والحج ـ ١٨٨ البقرة » حيث صرف سبحانه السائلين الى ما هو اوفق وانفع ولفتهم لفتة زاجرة الى الآثار والمنافع .

ثم قال : هناك امور واضحة وصريحة في باب الخير والشر ، فالسارق يدرك ان عمله شر ، والكذاب يعرف انه منحرف عن الحق ومع هذه الصراحة والوضوح فانه لا يستطيع ان يضع معادلة جبرية للخير والشر ، ويحللهما تحليلا كيماويا كما يريد الفلاسفة والحكماء .

شبهة الشر :

تبين مما تقدم ان الشر موجود ، وعليه يتجه هذا السؤال : كيف

يمكن الجمع والتوفيق بين الايمان بوجود الشر . والايمان برحمة الله وقدرته على كل شيء ؟ ولماذا لم يخلق الله عالما لا شر فيه ؟.

ولقد طرح هذا السؤال منذ آلاف السنين ، واجاب عنه «زرادشت» بوجود إلهين : إله للخير ، وهو « موزد » أو « يزدان » وإله للشر ، وهو « اهريمان » او « اهرمن » .

وقال آخر : ان الله خلق الكون ، ثم اعتزل ، لا يعنيه من امر الخلق قسوة ولا رحمة ، وكل ما في الكون من مظاهر هو من عمل الكون بما فيه من قوى وحركة .

وقال عابد زاهد : ان الشر في الدنيا لعقوبة العصاة والمذنبين ... الى غير ذلك من الاقوال التي لا تستند الى دليل .

وارجح ما قرأت في الجواب عن السؤال المتقدم - يتلخص بان العالم المادي من حيث هو وبموجب طبعه وذاته ، له آفات وسيئات كالاغراق والاحراق ، والوباء والادواء والزوابع والعواصف ، وما الى ذلك من اسباب النقص والشقاء ، وله ايضا حسنات وخيرات ، كالغذاء والجمال والرفاهية ، ونحو ذلك من النعم واسباب الحياة ، ويستحيل ان توجد الطبيعة لمجرد المنافع واشباع الرغبات من دون الزوابع والعواصف وغيرها من الآلام ، كأن يوجد البحر - مثلا - للصيد والنزهة والسفر فقط دون ان يغرق فيه احد مهما كانت الاسباب ، وان تنظر العين الجمال دون القبح ، وتسمع الاذن ما تشتهي دون ما تكره ، وان يذوق الفم الحلو دون المر ، ويكتب القلم كلمة الحق دون الباطل ، وان يقبل الجسم الحساس الصحة دون السقم ، والراحة دون التعب ، والمعدة الشبع دون الجوع ، وان ينطق اللسان صدقا وصوابا دون الكذب والخطأ ... الى ما لا نهاية من الامثلة .

وعلى هذا يكون الشر من فعل الطبيعة المخلوقة مباشرة لا من فعل الله الخالق .

قال صاحب الاسفار : « فاذا قلت : لماذا لم يخلق الله طبيعة بلا شر فكأنك قلت : لماذا لم يجعل الله النار غير النار .. وبهذا تعلم فساد من ظن من العوام واهل الكلام الذين لا يعرفون كيفية العجز في المادة ، فيقولون : ان الله عجز عن كثير من الاشياء ، منها ان يخرج ابليس من ملكه ، وجهلوا ان العجز في عدم وجود الملك لغير الله ، لا في الله ، ومنها ان يدخل السموات في خرم الابرة ، وذهلوا ان العجز في الابرة وخرمها ، ومنها ان يجمع بين النقيضين : والعجز فيهما لا فيه » .

وتسأل : ما هو وجه الجمع والتوفيق بين القول : ان الشر من لوازم الطبيعة الضرورية وبين ما جاء في بعض الروايات من ان الخير والشر من الله ، جلت عظمته ؟.

الجواب اولا : جاء في اصول الكافي عن الامام الصادق (ع) : ان الله سبحانه قال : يا ابن آدم انا اولى بحسناتك منك ، وانت اولى بسيئاتك مني **ثانيا** : ان الامر في ذلك سهل جدا ، فلقد جاء في العديد من الآيات ان ظواهر الطبيعة كلها من الله كالرياح والامطار ، وانبات النبات .. حتى الظل نسبه سبحانه الى نفسه : « ألم تر الى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ـ ٤٥ ـ الفرقان » : بل في بعض الآيات ان الله خلق آدم والانعام بيده : « ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدي ـ ٧٥ ـ ص » : «او لم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعاما ـ ٧١ ـ يس » مع ان هذا وما اليه يستند مباشرة الى الطبيعة .. ولكن بما ان الله هو الذي اوجد الطبيعة بكل ما فيها من قوى وعناصر ، وان هذه العناصر تتفاعل وتأخذ مجراها الطبيعي ـ صح نسبتها اليه تعالى تبعا وبالواسطة .

أجل ، الخير من ظواهر الطبيعة ولكن تصح نسبته مباشرة الى الله، وان كان السبب القريب هو الطبيعة ، لان الغرض من وجود الطبيعة هو الخير ، والخير محبوب ومراد لله سبحانه ، اما الشر فليس بمحبوب ، ولا هو مراد بالاصل بل تبعا ... وبتعبير ابن سينا « الخير مقتض بالذات ، والشر مقتض بالعرض » . وقال الامام الصادق (ع) : ان ترك الخير الكثير لشر قليل فيه شر كثير .

وقال الملاصدرا : الشر موجود في الطبيعة وكثير ، ولكن خيرالطبيعة اكثر من شرها ، ونفعها اكثر من ضرها .. أن الذي احترق ثوبه بالنار قد تضرر بسببها ، ولكن اذا قسنا هذا الضرر البسيط الى منافعه بالنار طوال حياته — لم نجده شيئا مذكورا .. هذا في الشخص الواحد ، فكيف النوع ؟ . ان الاشخاص الاصحاء من افراد الانسان والحيوان اكثر بكثير من ذوي الآفات والعاهات » .

الخلاصة :

والخلاصة ان الله قادر على كل شيء وعالم بكل شيء ، ويستحيل في حقه ان يوجد شيئا الا على اكمل ما يمكن ان يوجد عليه ذلك الشيء ، بل يستحيل ان يوجد ما هو احسن منه ، وقد استنتج الفلاسفة من هذه الحقيقة قاعدة ، اسموها قاعدة الاشرف ، ويريدون بها ان الله لا يوجد الادنى مع امكان وجود الاعلى ... وايضا يستحيل ان يوجد الشيء الا من اجل الخير فقط ... حتى جهنم وعذابها خير بالنسبة الى تحقق الغرض المقصود منها .

وقد يستتبع الخير المراد لله قليلا من الشر ، فيغتفر في جانب الخير الكثير ، ولذا يضحي التاجر و الزارع والصانع ، بل وطالب العلم بالكثير

رغبة فيما هو اكثر ربحا ، واعود نفعا •• وختاما هل من الخير ان يحبس الله عن عباده المطر لانه يبلل ثوب زيد او عمرو ، ويحرمهم مـــن الشمس ومنافعها لانها تضرب طفلا بحرارتها ؟• وهل علينا ان نحجم عن استعمـــال الكهرباء لان البعض قد يتضرر من وجودها ، ولا نركب السيارة والطائرة، لانه بالامس سقطت طائرة ، واليوم اصطدمت سيارة •

فلسفة الاختيار

مواضيع ثلاثة

نتحدث في هذا الفصل عن مواضيع ثلاثة ، لانها متشابكة متشابهة .. الموضوع الاول : القضاء والقدر، الثاني : هل الانسان مسير او مخير. الثالث : ما هو المراد بنسبة الهدى والضلال الى الله تعالى ، مثل قوله تعالى : « فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء ــ ٨ فاطر » .

معنى القضاء والقدر

ما هو معنى القضاء والقدر ؟. وهل يجب الرضا والايمان به ؟ وبالتالي هل هذا الايمان يبعث على الكسل والتواكل كما يقول اعداء الله والاسلام ؟.

اما القضاء فله معان : منها الامر ، كقوله تعالى : « وقضى ربك ان لا تعبدوا الا إياه وبالوالدين احسانا ــ ٢٣ الاسراء» ومنها الحكم والفصل كقوله سبحانه : « فاقض ما انت قاض ــ ٧٢ طه » . ومنها الفراغ والتمام : « قضي الأمر الذي فيه تستفتيان ــ ٣١ يوسف » . ومنها الارادة التكوينية : « واذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون ــ ٤٧ آل عمران » ..

ومنها العهد : « وما كنت بجانب الغربي اذ قضينا الى موسى الامر ــ ٤٤ القصص » • ومنها الموت والقتل : « فوكزه موسى فقضى عليه ــ ١٥ القصص » • ومنها الخلق : « فقضاهن سبع سموات ــ ١٢ فصلت »• الى غير ذلك من المعاني التي انهاها بعضهم الى احد عشر معنى •

ويستعمل القدر في التضييق ، ومنه قوله تعالى : « واما اذا ما ابتلاه فقدر عليه رزقه فيقول ربي أهانن ــ ١٦ الفجر » • ويستعمل في التعظيم : « وما قدروا الله حق قدره ــ ١٩ الانعام » • وفي مبلغ الشيء ومقداره : « قد جعل الله لكل شيء قدرا ــ ٣ الطلاق » •• « انا كل شيء خلقناه بقدر ــ ٤٩ القمر » • وقيل : المراد هنا ان كل شيء ثابت في علم الله كما هو في طبيعته وخصائصه ، ويستعمل القدر ايضا في القضاء الحتم : وكان امر الله قدرا مقدورا ــ ٣٨ الاحزاب » •

واوضح معاني القضاء البت والامضاء الذي لا معقب ولا مرد له ، واوضح معاني القدر التقدير ، قال الامام الكاظم نجل الامام الصادق (ع): القدر هو تقدير الشيء من طوله وعرضه ، والقضاء هو الامضاء الذي لا مرد له ، وقال الرضا حفيد الامام الصادق (ع) : القدر هندسة ، والقضاء ابرام •

ويمكن ان يكون من هذا الباب ما روي ان عليا امير المؤمنين (ع) عدل من حائط مائل الى آخر مستقيم ، فقيل له : اتفر يا امير المؤمنين من قضاء الله ؟• قال : افر من قضاء الله الى قدر الله عز وجل • اي من قضاء الله بسقوط الحائط الى ما بقي من عمري الذي قدره الله ، وكتبه لي •

وكثيرا ما يستعمل القضاء والقدر في معنى واحد ، وهو الحتم الذي لا معقب له ولا مرد •

موضوع القضاء والقدر :

وموضوع القضاء والقدر هو ما يحدث في الطبيعة من ظواهر ، ويصدر عن الانسان من اعمال ، وليس من شك ان لهذه الحوادث والاعمال موجبات واسبابا .. فما هي هذه الموجبات والاسباب ؟. هل هي الطبيعة وسننها فقط لا غير ، كما يزعم الماديون ، او هي قوة قاهرة تكمن وراء الطبيعة ، وتتصرف كما تشاء مباشرة وبلا توسط علة ونظام كما يظن المؤمن الغبي ، او هي تلك القوة القاهرة العالمة ، ولكن بتوسط ربط المسببات باسبابها ، والنتائج بمقدماتها ، كما يقول اهل الدين والعلم .

قال الامام جعفر الصادق (ع) : « ابى الله الا ان يجري الاشياء باسباب ، فجعل لكل شيء سببا ، وجعل لكل سبب شرحا ـ اي علامة تدل عليه وتميزه عن غيره ـ وجعل لكل شرح علما ـ اي ان تلك العلامة تفيد القطع واليقين ـ وجعل لكل علم بابا ناطقا عرفه من عرفه ، وجهله من جهله » . اي ان باب العلم لا يخفى على اهله ، وهو العقل والوجدان ، والنبي والقرآن .

وقال الفارابي : ان الله هو علة وجود الاشياء ـ يريد الاسباب ـ اما الاشياء ذاتها فانما يؤثر بعضها ببعض وفقا لقوانين نعرفها بالتجربة .

وقال الملا صدرا في شرحه لاصول الكافي : القضاء والقدر انما يوجبان ما يوجبان بتوسط اسباب وعلل مترتبة منتظمة ، بعضها مؤثرات ، واخرى متأثرات ، ومتى اجتمعت الاسباب وارتفعت الموانع وجد الشيء المقضي المقدر .

وفي قول الله سبحانه غنى عن كل قول ، وهو واضح وصريح في انه جلت حكمته ، يجري الامور وفقا لقوانين ثابتة تضبط سير الحوادث

والاعمال ، وتطرد على نسق واحد عبر القرون والاجيال ؛ وقد عبر سبحانه عن هذه القوانين بسنة الله التي لا تقبل التبديل والتحويل لانه هو خالقها والمسيطر عليها، قال عز من قائل: «سنة من قد ارسلنا قبلك ولن تجدلسنة الله تحويلا ــ ٧٧ الاسراء» • وقال : «سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ــ ٦٢ الاحزاب » • وقال : «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ــ ١١ الرعد» • الى آخر الآيات التي دلت بصراحة ووضوح على ان قانون الاسبـاب والمسببات ؛ وربط النتائج بالمقدمات هو قانون كوني إلهي يطرد في كل شيء ولا يخرج عنه شيء الا اذا خرج عن صنع الله •• ان وجد شيء ليس لله فيه صنع •

الايمان بالقدر ايمان بالعلم والعمل :

وعلى هذا يكون الايمان بالقضاء والقدر هو عين الايمان بالعلـم والعمل ، والجد والاجتهاد من اجل الحياة ؛ بل هو عين الايمان بان اللـه مع العاملين والمجاهدين ؛ وانه سبحانه ضد الكسالى والمخنثين : (وقـل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون وستردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون ــ ١٠٥ التوبة •• وتوفى كـل نفس ما عملت وهم لا يظلمون ــ ١١١ النحل) • ان الله سبحانه لا يفعل جزافا ؛ ولا يترك اعتباطا ، بل يعطي ويمنع حيث يوجد سبب العطاء او المنـع : « ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك ــ ١٩١ آل عمران » •

اما الرضا بالقضاء والقدر [1] فهو الرضا بكد اليمين وعرق الجبين ، والثقة بالله وبالنفس ؛ هو النهوض بالعبء عـن طيب خاطر ، وتحمـل المسؤولية من غير تأفف وتبرم • ونفض اليدين من الغرور مع النجاح، على

---

(١) الرضا بالقضاء والقدر عند حلول المصيبة لا يجب لذاته وبما هـو . وانما الواجب ان لا يتفوه الانسان بمحرم ؛ امـا الايمان بالقضاء والقدر بالمعنى الذي ذكرناه فهو من لوازم العلم بالله وصفاته .

حد تعبير بعض الادباء وترك الآهات والحسرات مع الفشل ، وبكلمة هو ان يكون الانسان عاقلا متزنا في جميع حالاته ، لا تبطره نعمة ، ولا تذله مصيبة : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم — ٢٣ الحديد » .

أبعد هذا يقال بان الايمان بالقضاء والقدر يجعل المسلم كسولا متواكلا يدع اموره الى خالقه يعملها عنه وينجزها له ؟.. اذن لماذا الحث على الجهاد وآياته ، وعلى الصبر والتضحية من اجل العمل المثمر ؟. واذا كان الايمان وحده كافيا وافيا فلماذا قرنه الله بالعمل في العديد من الآيات ، ثم اجملها بقوله : « وان ليس للانسان الا ما سعى — ٣٩ النجم » ؟.

ان السبب الاول والاخير الذي اوجب الايمان بالقضاء والقدر هو بديهة العقل التي ادركت بمعونة الحس والعيان — كما قدمنا في فصل اثبات الخالق — انه لا وجود لشيء على الاطلاق الا ولله فيه تأثير وتقدير بنحو او بآخر . حتى نظرات العين ، ونبضات العرق ، وخطرات القلب : « ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه — ١٦ ق » . لقد خلق سبحانه الاسباب وسلطها على المسببات ، وهو عالم بالاثنين معا ، وعلمه تماما كارادته لا يتخلف عن المعلوم ، ولو شاء لذهب بكل من السبب والمسبب والفاعل وفعله .. ما شاء الله كان ، وان لم يشأ لم يكن .

واذا كان الايمان بقضاء الله وقدره هو عين الايمان بالله ونظامه ، وقدرته وسننه التي هي سنن الطبيعة بالذات — اذن اين مكان الصراع والعناد بين الايمان بالقضاء والقدر ، وبين الايمان بالعلم والعمل ؟. واين مكان التواكل والكسل بل ما هو الفارق ووجه الخلاف بين المؤمنين والماديين من حيث العلم والايمان بان الاشياء تجري على اسبابها ؟.. ابدا لا خلاف بين من آمن ومن جحد من هذه الحيثية والجهة ، والفرق انما هو من جهة ثانية .. ذلك بان الماديين قالوا : لا شيء وراء الاسباب

الكونية يدبرها ويقوم عليها : بل هي عنصر مستقل برأسه يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ... وقال المؤمنون العارفون : ان الاسباب والعلل بشتى انواعها تنتهي بكاملها الى المبدأ الاول وسبب الاسباب ، ويفتقر اليه في اصل وجودها واستمرارها وانه تعالى شأنه لو تخلى عنها طرفة عين فما دونها لم تكن شيئا مذكورا .

وقد اثبتت التجارب العلمية ان بعض الآثار المترتبة بظاهرها على المادة يستحيل ان تأتي من ذات المادة وخصائصها ، وانما هي بتوسط قوة خارجة عن للمادة ــ كما نقل عن علماء الطبيعة ــ ومما قرأته في هذا الباب ما نقله العقاد عن اهل الاختصاص في كتاب الفلسفة القرآنية ص ١٤٦ طبعة ١٩٦٩ ، وهو « ان الكشوف تعاقبت في ميادين العلوم الطبيعية ، وكل منها يرجع الى قانون يزعم اصحابه انه صالح لتفسير كل ظاهرة من الظواهر الطبيعية بغير حاجة الى مدبر من وراء الطبيعة .. ثم تقدمت الكشوف الذرية ، وابطلت هذه النظرية » ثم ذكر العقاد الكاتب الاسلامي الشهير اسماء علماء الطبيعة الذين آمنوا بهذه الحقيقة واعلنوها على الملأ .

والخلاصة ان الايمان بالله يلازم الايمان بالقضاء والقدر بالمعنى الذي ذكرناه ، وهو ان الله سبحانه وتعالى قد جعل لكل شيء سببا ، وان سلطانه فوق سلطان الاسباب وغيرها .

هل الانسان مسير أو مخير ؟

ان افعال الانسان كغيرها من الحوادث لا بد لها من سبب موجب ، والا امتنع وجود شيء منها على الاطلاق ، لان الحكمة الالهية قضت ان يجري كل شيء بسبب ونظام ، وهذا السبب الموجب عبارة عن خط طويل يتألف من حلقات هي علل متتابعة يتولد بعضها من بعض تبتدي من واجب الوجود العلة الاولى ، وتنتهي بالعلة المباشرة لوجود الفعل بلا واسطة ،

وليست هذه العلل بكاملها في تصرف الانسان ، وتحت قدرته ، يقبل منها ما يشاء ويرفض ما يريد •• هذا مستحيل ، والا كان الانسان مخيرا ، في كل شيء حتى في خلقه واصل وجوده ، واي كائن طبيعي لا يخضع لقوانين الطبيعة ؟• اللهم الا اذا امكن ان ينفصل الشيء عن نفسه •

ولكن ليس من الضروري ان تكون العلل في الخط السببي كلها حتمية ابدا ودائما وفي كل الاحوال ، بحيث لا يستطيع الانسان ان يختار اي شيء من الاشياء ، او يحدد لنفسه مسلكا من المسالك •• ولو صح هذا لم يكن للانسانية عين ولا اثر ، اذ لا انسانية بلا حرية ، وما فضل الله الانسان على كثير من خلقه الا بعد ان منحه القدرة التي بها يفعل والعقل الذي به يميز والارادة التي بها يختار •

واذن ، فالخط السببي قد يكون حتميا بجميع اجزائه وعلله الاولية والثانوية ، وعندئذ يكون الانسان مسيرا ، لا مخيرا بالاتفاق •• ويستحيل ان يكون الخط السببي بكامله اختياريا •• ايضا بالاتفاق •• وقد تكون بعض علل الفعل وموجباته حتمية لا صلة لها بقدرة الانسان وارادته ، والبعض الآخر عين قدرته وارادته ، وهنا محل البحث والكلام في ان الانسان هل هو مخير او مسير في هذه الحال ؟•

ولا اشك في اني مخير في كثير من الافعال ، فها انا الآن ادخن واكتب بملء ارادتي واختياري ، وبالامس عرض علي بائع البطيخ ان اشتري منه فاشتريت ، ودفعت الثمن عن طيب نفس ، وسأتغدى بعد ثوان من اللحم المشوي مع « الزلاطة » • وصممت ان اصطاف بلبنان في العام المقبل ، ان كنت مع الاحياء كل ذلك كان مني لا من سواي ، وانا بالذات اخترته لنفسي ، وهكذا غيري •

هذا ما احسه من اعماقي ، ولا استطيع ان انكر احساسي ، وما من

احد يستطيع اقناعي باني في ذلك مسير لا مخير الا بدليل اقوى من الحس والوجدان •• فاين هو ؟• وهل بعد الحس من دليل ؟• وكلما تفاقم الخلاف في حرية الانسان ازددت ايمانا ويقينا بحريته •• ذلك بان الخلاف في حرية الانسان هو في ذاته اجماع على وجودها ، واعتراف صريح بها من الذين انكروها على المستوى النظري ، لانهم في انكارهم لحرية الانسان اما مسيرون ، واما مخيرون ، ولا ثالث ، وعلى الاول فانكارهم ليس بشيء لان انكار المسير تماما كانكار المجنون واقراره ، وعلى الثاني يكون انكارهم في ذاته اعترافا عمليا بحرية الانسان ، واذن فالاجماع قائم ومنعقد من الجميع على ان الانسان مخير لا مسير •

وتسال : اذا كانت حرية الانسان في هذا المكان من البداهة فكيف وقع فيها الخلاف بين ارباب العقول ــ ولو على المستوى النظري • ــ

الجواب :

ان ارباب العقول الذين اشرت اليهم يعترفون بان في الانسان قدرة وارادة ، ولكنهم يزعمون ان الله يخلق الفعل في الانسان بمجرد ان يهم به ، ويتجه اليه ، وان الاثر كل الاثر في وجود الفعل الانساني هو لله وحده ، ولا شيء فيه للانسان ومن الانسان •• كلا ، انه مجرد ظرف واداة للفعل •• حتى « البانزين » في السيارة افضل الف مرة من الارادةوالقدرة في الانسان ، لان « للبانزين » تأثيره البالغ في حركة السيارة وسيرها، اما القدرة والارادة في الانسان فليس لهما ادنى تأثير في نشاطه وعمله •• ويأتي البيان •

وبعد : فان مقياس الفعل الاختياري هو ان يكون مرادا ومقدورا فعلا وتركا لفاعله ايا كان مصدر الارادة ومنشأها ، وعلى هذا الاساس قامت الاديان والاخلاق والآداب ، وشرعت الشرائع والقوانين ، وعامل

الناس بعضهم بعضا تهمة وثقة ، وكرموا الابطال والهداة ، ولعنوا الخونة والطغاة ، ولو كان الانسان مسيرا لا مخيرا لكانت جميع افراده بمرتبة سواء لا فضل لتقي على شقي ، ولا لعالم على جاهل ، لان العلم والتقوى من الله لا من الانسان ٠

وصدق من قال : ان الانسان حر لمجرد كونه انسانا ٠٠ اجل ، قد تتولد ارادة الانسان من الاضطرار ، كمن يقطع عضوه السقيم لسلامة بقية الاعضاء ، وايضا قد تتولد ارادته من البيئة او العادة او الوراثة ، ولكن لا شيء من ذلك يخرج بالانسان عن حريته ما دام هو الذي يحدد المصلحة لنفسه ، ويرجح اهون الشرين على اخطرهما ، ويقدم على الفعل باختياره وارادته ٠

ومن اجل هذا اهملت الشرائع والاديان البيئة والعادة والوراثة ، ولم تدخل شيئا منها في حسابها من حيث المؤاخذة ، بل اخذت الفاعل بفعله ، وان ورثه عن ابيه وامه ، او من بيئته ، او من طبيعته الثانية مكتفية بقدر معين من الحرية ٠٠ اجل ، لقد اسقط الشارع المؤاخذة عن المريد المضطر ، كالجائع يأكل من الميتة ؟ او يسرق الرغيف ليقيم به الاولاد حيث لا وسيلة الا السرقة والميتة ٠٠ ولكن الشارع صحح معاملة المريد المضطر، وعمل بارادته التي انشأها بالعقد ، وصرف ــ اي الشارع ــ النظر عن البواعث الخارجية ، والدوافع القهرية ، كمن باع ثوبه او داره من اجل التطبيب ، وفي الوقت نفسه ابطل الشارع معاملة المكره ــ بالفتح ــ ومعنى هذا ان مجرد الارادة كافية لان تجعل الانسان مخيرا لا مسيرا ايا كان نوعها وقدرها ومنشأها ومصدرها ، وما احاط بها من حدود ومقاومات ٠

الارادة والاختيار والرضى :

وبهذه المناسبة نشير الى الفرق بين الارادة والاختيار والرضى ٠٠

لا شك ان للانسان حالات تختلف بحسب ظروفه ، فقد يريد شيئا ويتمناه مع العجز عنه ، وقد يريده مع القدرة عليه بلا علل وشوائب ، فيختاره ويرضى به ، وهو مرتاح النفس والضمير ، وقد يقدر على الشيء ولكن مع العلل والمنغصات ، فاذا اضطر اليه اختاره — لارضى به — بل ترجيحا لاهون الشرين •• وعلى هذا تكون الارادة اعم من الاختيار والرضى ، لانها تكون مع القدرة وعدمها ، ولا يكون الاختيار الا مع القدرة ، اما الرضى فهو اخص من الارادة والاختيار ، اذ قد يختار الانسان فعلا دون ان يرضى به ، وترتاح اليه نفسه •• وقديما قيل : اذا لم يكن ما تريد فارد ما يكون •

الجبر والتفويض وما بينهما :

قدمنا انه يكفي للحكم بان الانسان مخير لا مسير ان يكون له قدر من الحرية ، وان الحرية الكاملة والمطلقة من كل جهاتها ليست بشرط ، ودعمنا رأينا هذا بمنطق الحس وبديهة العقل ، وبهما نحتج على من خالف وانكر •

وقد اختلف الناس او المسلمون في مسألة الجبر والاختيار،وافترقوا على ثلاث فرق ، اشار اليها الامام الصادق (ع) مع بيان الفرقة المحقة — باخصر عبارة وابلغها ، وذلك حيث قال : « لا جبر ولا تفويض ، بل امر بين امرين » • « لا جبر » اشارة الى قول الجبرية • ولا « تفويض » الى رأي المفوضية ، ويطلق عليهم ايضا القدرية • و « امر بين امرين » الى ما عليه الامامية • والتفصيل فيما يلي :

الجبرية

قال الشريف المرتضى في كتاب انقاذ البشر : اول من ابتدع الجبر في الاسلام جهم بن صفوان • وكان في صدر الدولة الاموية ، وتبعه في هذا القول ابو الحسن الاشعري امام السنة في العقائد ، وكان في القرن

الثالث الهجري ، ويتلخص قول الجبرية بانه لا سبب حقيقي في الوجـود على الاطلاق ، ولا شيء يؤثر في شيء من قريب او بعيد ، سواء أكان من نوع المادة ، ام من غيرها ، فلا علاقة للرجل بالمشي ، وللعين بالرؤيـة ولا للاذن بالسمع ، وللسان بالكلام ، ولا صلة للعقل بالعلم ، والمعدة بالهضم، ولا للماء بالحياة .

ابدا لا سبب ولا تأثير الا لله ، فهـو وحده يباشر كـل شيء حتى النفس هو الذي يخرجه من الانف .. وحتى الثمرة هو الذي يقطفها من الشجرة ، ويرمي بها على الارض مباشرة وبلا واسطة ، اما جاذبية الارض وغيرها فكلام فارغ .

واما قدرة الانسان وارادته وعقله فنسبتها الى افعاله واقواله تماما كنسبة الحجر الى الانسان ، لان الله هو الذي يخلق الفعل والقـول في الانسان، وما الانسان الا اداة او ظرف ككأس الشراب وإناء الطعام. هذا هو المراد بالجبر الذي نفاه الامام الصادق (ع) بقولـه : « لا جبر ولا تفويض ، بل امر بين امرين » .

وزعم الجبرية ان قولهم ضروري لكمال التوحيد الخالص من كـل شائبة ، لانه لو كان لغير الله ادنى تأثير لكان شريكا له في خلقه ، ولم يكن الله هو الواحد الاحد ، والفرد الصمد .

وقد غاب عن عقولهم ان مبدأ العلية مبدأ الهي وطبيعي في آن واحد وان الله سبحانه هو الذي خلق الكون بارضه وسمائه ، وجعل كل شيء فيه يجري بسبب ونظام لا يتخلف عنه ، ولا يتجاوزه الا ان يشاء الله ، وعلى هذا تكون الاسباب ومسبباتها ، والنتائج ومقدماتها ، ومنها افعال الانسان الخاضعة لقدرته وارادته ، كل ذلك وما اليه في ملك الله وسلطانه .. **وباسلوب آخر** : خلق الله الكون على نظام يربط المسببات بالاسباب، وهو سبحانه بالذات اودع في كل سبب قوة التأثير والتيسير ، وجعل فيما

جعل قدرة الانسان وارادته من المقدمات والاسباب لانجاز اي فعل من افعاله الاختيارية .

لقد ذهل الجبرية عن هذه الحقيقة . وايضا ذهلوا انهم ارادوا ان ينفوا الشريك لله ، فنسبوه الى الظلم .. حتى الجاهل يتساءل بفطرته ويقول : اذا كان الله هو الذي قدر على كل شيء وهو الذي فعل وترك وحده لا شريك له ، فلماذا يكلفني ويحاسبني ويعاقبني ؟ . وكيف جاز ذلك في عدله ؟. وعن اي شيء اتوب واطلب العفو ؟. هل اتوب من فعل الله ، لا من فعلي ، واطلب العفو عما كان من مشيئته ، لا من مشيئتي ؟.

لقد تجاوز الجبرية كل حد ، ولا شيء يساوي قولهم هذا في اي دين . قال النصارى : ان الله اقدر عباده على صلبه ، فصلبوه ، وتقبل هو الصلب لا لشيء الا ليكفر عن خطيئة المذنبين ... وقال الجبرية : كلا: ان الله صلب الابرياء لا لشيء الا ليكفر هو عن فعله وعمله .. تعالى الله عن ذا وذاك علوا كبيرا .

المفوضة :

وقف المفوضة ، ويقال لهم القدرية ايضا ، وقفوا في الخط المقابل للجبرية ، وقالوا : ان الله خلق العباد ، ومنحهم القدرة على الفعل والترك، وامرهم بالطاعة ، ونهاهم عن المعصية ، ثم فوض اليهم ان يفعلوا بهذه القدرة ما يشاءون ، أي انه تعالى بعد ان خلق القدرة ، واعطاها لهم انتقلت منه اليهم ، وصارت ملكا طلقا لهم ، وانقطعت الاسباب والصلات بينها وبين خالقها في كل ما يفعلون ويتركون بسبب هذه القدرة تماما كالمبيع ينتقل من البائع الى المشتري بعد أن يتم عقد البيع ويلزم ، والفرق ان الله يسأل عباده يوم القيامة عن هذه القدرة ، ويحاسبهم من اجلها ، فيعاقب من اساء التصرف بها . ويجزي من احسن بالحسنى ، اما البائع فلا شأن

له مع المشتري ، اساء التصرف في المبيع ، ام احسن ••• هذا هو المراد من التفويض الذي نفاه الامام الصادق (ع) بقوله : « لا جبر ولا تفويض ، بل امر بين امرين » • وقل العارفون بمعنى التفويض حتى ان بعضهم فسره بالتفويض في تشريع الاحكام •• وعلى هذا يكون كل انسان مشرعا ومصدرا لدين الله وحلاله وحرامه •• واشكل منه تفسير الامر بين الامرين حيث حصل فيه خبط وخلط كثير ، ويأتي البيان ، وتقدم تفسير الجبر في الفقرة السابقة •

والذي حمل المفوضة على هذا القول انهم ارادوا ان ينزهوا الله عن الظلم والجور الذي نسبه الجبرية اليه تعالى ــ فعزلوه عن ملكه ، وجعلوا له شريكا في خلقه •• حاولوا الفرار من القبيح ، فوقعوا فيما هو اسوأ واقبح • قال الملا صدرا : كل من الجبرية والمفوضة اعور دجال •

ولو صح هذا التفويض لجاز للانسان اذا فعل شيئا ان يقول : فعلت هذا بحولي وقوتي لا بحول الله وقوته •• نستعيذ بالله ونستغفره •• واذا كان اللازم على قول الجبرية ان يسد الله تعالى باب التوبة والعفو والرحمة ــ فان المفوضة يلزمهم القول بان يسد سبحانه باب التوكل عليه، والثقة به ، والابتهال اليه ، وطلب التوفيق منه والهداية •• سبحانه وتعالى عما يشركون ••

ان الذي يؤمن بالله وحده لا بد ان يؤمن ايضا بان قدرته كأي حادث وكائن هي من الله ، وفي يد الله ، وانه تعالى هو الذي اراد لها ان تفعل وتؤثر كما اراد ذلك لغيرها من الاسباب ، وانها مسخرة لامره حدوثا واستمرارا ، ينتزعها سبحانه من عباده ساعة يشاء •• حتى وهم يباشرون افعالهم واعمالهم ، ولا يستطيعون لها ردا •• وشاهدنا ذلك مرات : « الحمدلله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا ان هدانا الله ــ ٤٣ الاعراف » •

امر بين امرين :

المراد بامر بين امرين منزلة بين الجبر والتفويض ، فقد سئل الامام جعفر الصادق (ع) : هل بين الجبر والقدر — اي التفويض — منزلة ثالثة ؟.

قال : نعم ، اوسع ما بين السماء والارض . وفي رواية ثانية : « لا جبر ولا تفويض ، بل امر بين امرين » . وفي ثالثة : « لا جبر ولا قدر ، ولكن منزلة بينهما فيها الحق الذي بينهما ولا يعلمها الا العالم او من علمها اياه العالم » وقال الملاصدرا : « ان تحقيق امر بين امرين مما يعجز عن ادراكه عقول كثير من العلماء والحكماء فضلا عن العوام » .

وكنت قد قرأت لهذا الامر او هذه المنزلة العديد من التفاسير ، واخترت بعضها ، ثم استبان لي الخطأ فيما اخترت ، ولذا عدلت عنه الى الرأي التالي وعسى ان اكون فيه على بينة من ربي ، لا من فهمي الذي يخطىء ، وقد يصيب .

بعد ان اتضح ظلم الجبر وجوره ، لان الله اكرم وارحم من ان يكلف عباده ما لا يطيقون ، ويعذبهم على ما فعل بهم هو وصنع .

وايضا اتضح فساد التفويض وبطلانه ، لان الله اعز واجل من ان يخرج شيء عن حكمه وسلطانه . كيف وهل يضاد الله في ملكه ، او بلغ به التناقض الى ان ينهى ويفوض ، ويقدر ويجبر في آن واحد ؟. بعد ان اتضح فساد الامرين معا وجب البحث عن امر ثالث ، ولكن اين يوجد هذا الامر ؟ وهل من ثالث للجبر والتفويض ؟. اجل ، هناك ثالث : وهذا بيانه :

من البداهة والخبرة بمكان ان الله قد اوجب على العبد ما اوجب ،

وحرم عليه ما حرم ، ومن اجل هذا ارسل الانبياء وانزل الكتب ، وشرع الشرائع •• وايضا من البداهة والخبرة ان العبد قادر على ان يفعل ما امر الله به ، ويترك ما نهى الله عنه ، وليس وراء الحس والبداهة من دليل ، واذن للعبد قدرة على الفعل والترك ، وبها يكون حرا ومكلفا ومسؤولا •

وايضا لا عاقل منصفا يشك في ان الله على صلة دائمة بجميع خلقه من اصغر ذرة الى اعظم المجرات ، وان ما من شيء في الارض ولا في السماء الا وهو مسخر لامره تعالى ، وفي قبضته مباشرة ، او بسبب من اسبابه كخصائص الكائنات ولوازمها التي لا تنفك عن ذاتها وطبيعتها •• وقدرة للعبد بالفعل ، والتي عليها مدار حريته وتكليفه ومسؤوليته هي بالذات شاء حتى حين يهم بالفعل او هو يباشره ، ومعنى هذا ان القدرة الثابتة للعبد بالفعل ، والتي عليها مدار حريته وتكلفه ومسؤوليته هي بالذات مملوكة لله يتصرف فيها كيف يشاء ، وان العبد مسير في اصل ثبوتها له ، وفي بقائها واستمرارها لا يستطيع بحال ان يرفضها : ولا ان يحتفظ بها •• وبهذا يكون العبد مسيرا في قدرته حدوثا وبقاء ، وهو في نفس الوقت مخير فعلا وتركا لما وجب عليه ، او حرم ، وعليه يكون تكليف الله لعباده حقا وعدلا ، لانه اقدرهم ومكنهم من الفعل والترك ، وجعل لهم الخيار في ان يفعلوا ، او يتركوا دفعا لشبهة القهر والالجاء الذي التزم به الجبرية •• وايضا يكون سبحانه ــ في تسخيره القدرة لامره وابقائها في قبضته ــ متفردا في خلقه ولا شريك له في ملكه الذي يلزم وجوده على القول بالتفويض •

وهذا المعنى هو المراد من امر بين امرين في قول الامام الصادق (ع) وقد استوحيناه من كلام قاله ذو العقل الكبير الملا صدرا، وهو يفسر الامر بين الامرين في شرحه لاصول الكافي ، وهذه عبارته بالحرف الواحد :

« لم يرد الامام (ع) بقوله : لا جبر ولا قدر ـ اي تفويض ان العبد خال من الجبر والاختيار ، ولا بقوله : ولكن منزلة بينهما ـ اي امر بين امرين ـ ان فيه شيئا ضعيفا من الجبر ، وشيئا ضعيفا من الاختيار ، ولا ايضا ان فيه تركيبا بينهما كالمركب من الحلاوة والحموضة •• بل المراد ان العبد مجبور في قدرته قادر في جبره ، مضطر في عين اختياره ، مختار في عين اضطراره ، والفعل ثابت له من حيث هو ثابت لله ، وصادر منه من حيث هو صادر من الله » •

ونفسر هذه العبارة تيسيرا على الافهام بعد ان فسرنا قول الامام بوحي منها •• يريد ذو العقل الكبير ان العبد مجبر في الزامه بالقدرة لعجزه عن رفضها وعن الاحتفاظ بها ايضا ، وهو برغم هذا العجز قادر على ان يفعل ويترك لان الله قد مكنه من احدهما على سبيل التخيير • ولا مهرب له من ذلك ، أي ان العبد مخير ضمن الاطار الذي يضم الفعل والترك معا تماما كفردي الواجب التخييري فاذا اختار العبد الفعل اسند اليه حيث آثره على الترك وايضا يسند الى الله ، لانه هو الذي اقدره عليه ، ومكنه منه ، وهكذا يقال لو ترك ، واذن فلا يقال : ان العبد مخير مطلقا ومن كل الجهات ، ولا هو مسير كذلك بل مخير من جهة ومسير من جهة وهذا كاف واف في حريته التي تبرر تكليفه ومسؤوليته •

الله ومعصية العبد :

وتسأل : اذا كانت قدرة العباد مسخرة لله وفي قبضته ، وانه بهذا الاعتبار تنسب افعالهم الى الله واليهم معا اذا كان الامر على هذا فمعناه ان العبد اذا عصى وفعل الشر جاز ان ننسب شره ومعصيته الى الله كما ننسبها الى العبد • وعليه يكون الله شريكا لعبده في المعصية وفعل الشر ومن البداهة بمكان انه لا يجوز في منطق الحق والعدل ان يعاقب اقوى الشريكين شريكه الضعيف على شيء هما سواء فيه ؟

الجواب :

ليس من شك ان العبد اذا اطاع وفعل الخير ينسب اليه حيث كان في مقدوره ان يتركه ، وينصرف الى الشر ، ومع هذا لم يفعل ، وايضا تنسب هذه الطاعة وهذا الخير الى الله بقول مطلق ، لانه تعالى هو الذي اقدر العبد عليه ، وامره به ، فاستجاب واستحق الثواب ، اما اذا عصى العبد وفعل الشر فانه يسند اليه حيث فعله وهو قادر على تركه ، ولهذا يستحق العقاب ، وايضا يسند هذا الشر الى الله ، ولكن لا بقول مطلق ، بل بقيد واعتبار ان القدرة التي عصى العبد ربه بواسطتها هي من الله سبحانه ٠

وانه قادر على سلبها منه بمجرد ان يهم بالمعصية ، ولكن الله تعالى لم يفعل لحكمة نشير اليها في سياق هذا الكلام ٠

ولله جلت عدالته ، ان يحاسب العاصي ، ويعاقبه على المعصية حيث نهاه عنها ، وحذره منها بعد ان اقدره منها ، ولكنه عاند وتمرد ، قال الامام الصادق (ع) : قال رسول الله (ص) : من زعم ان الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله ومن زعم ان الخير والشر بغير مشيئة الله فقد اخرج الله من سلطانه ، ومن زعم ان المعاصي بغير قوة الله فقد كذب على الله ، ومن كذب على الله ادخله النار » ٠

يريد الامام (ع) بمشيئة الله للشر انه تعالى منح عباده القدرة على الشر تماما كقوله تعالى : « وما تشاؤن الا ان يشاء الله ــ ٣٠ ــ الانسان » أي لا تقدرون على شيء الا بقدرة من الله ٠٠ ان الله سبحانه نهى عن المعاصي ، وتوعد العبد عليها ، ولكن العبد ارادها لنفسه ، وفعلها بسوء اختياره مستعينا بقدرة هي منحة من الله لعبده ، فتركه سبحانه وشأنه ، ولم يردعه عن المعصية بالقهر والالجاء حرصا على انسانيته ، اذ لا انسانية بلا حرية ، وايضا ليفصح عن نفسه ويظهر للملأ على حقيقته ،

ويتميز عن الطيبين باختياره وارادته وبالتالي لتكون الحجة لله عليه اعظم والزم حيث عصاه مختارا بقدرة هي نعمة عليه من الله ٠

وبعد : فان كثيرا من العلماء تعرضوا في مؤلفاتهم لمشكلة الجبر والاختيار ، وايضا وضعوا فيها كتبا مستقلة قرأت اكثرها ، او الكثير من طوالها وقصارها ، وبعضهم شوه الحقيقة ، وشوش العقول والافكار ، وزاد المشكلة غموضا وتعقيدا ٠٠ وفي استطاعتي ــ لو شئت ــ ان اسود عشرات الصفحات ، فالخص من الكتب واوضح ، واقلم واطعم ٠٠ ولكني لم افعل حرصا على عقل قارئي ورفقا به ، ولا اقول : ان كلمتي هذه حاوية واعية ، او فيها بلغة الكفاف ، لان الكاتب يجب ان يتوارى خلف ما يكتب ، ويدع الحكم له او عليه للذي يتقن فن القراءة ، ويجيد التفكير فيما يقرأ ، وانا اعرف هذا من نكهة حديثة ، وفي عقيدتي ان من قرأ ولم يفكر فقد تنكر للعلم الصحيح ، ولنعمة الله وفضله ٠ قال كونفوشيوس : « العلم بلا تفكير اخطر من التفكير بلا علم » ومهما يكن فنصيحتي ان يقيس الانسان القراءة على الطعام ، فلا يقبل عليها الا اذا كان مستعدا ، والا فقد ظلم نفسه ، والكاتب الذي يقرأ له ٠



اشكال وحل :

وهنا اشكال معروف ، وايضا جوابه معروف ، ويتلخص الاشكال بان الله سبحانه يعلم مقدما بان الانسان المجرم سيرتكب الشر ويفعله ، وليس من شك ان علمه تعالى لا يتخلف عن المعلوم تماما كارادته التي لا تتخلف عن المراد وعليه تكون ارادة الانسان مغلوبة لعلم الله ، وبالتالي يكون الانسان مسيرا لا مخيرا ، وبتعبير الفلاسفة او المتفلسفين ان كل ما علم الله صدوره عن العبد فهو واجب الصدور ، والا لزم انقلاب علمه سبحانه جهلا ٠٠ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ٠

الجواب : فرق كبير وبعيد جدا بين سابق علمه تعالى بسوء اختيار العبد لفعل الشر ، وبين سابق علمه سبحانه بفعل الشر من حيث هو ، وبصرف النظر عن ارادة فاعله واختياره له •• فان العلم الاول مجرد كشف عن وجود المعلوم في الحال او الاستقبال تماما كعلم الاستاذ بان لهذا التلميذ النجيب مستقبلا زاهرا ، وكعلمك بان فلانا الذي تعرفه جيدا سيرفض لا محالة لونا معينا من الطعام متى قدم له •

واما العلم الثاني فليس كشفا عن وجود الفعل بل علة لوجوده •• وبكلام آخر : فرق بين قولك : علمت بان زيدا سيسافر غدا ، وبين قولك: لما علمت بانه سيسافر سافر ••• وعلمه تعالى بصدور الفعل من العبد من النوع الاول •

الشقي والسعيد :

وبهذا نجد تفسير الحديث المشهور : « الشقي من شقي في بطن امه، والسعيد من سعد في بطن امه » اي ان الله يعلم قبل ان يخرج هذا من بطن امه انه سوف يعمل عمل السعداء ، وايضا يعلم قبل ان يخرج ذاك من بطن امه انه سوف يعمل عمل الاشقياء • وقد سئل الامام الكاظم (ع) عن معنى هذا الحديث ، فقال : « الشقي من علم الله ، وهو في بطن امه ، انه سيعمل عمل الاشقياء والسعيد من علم الله ، وهو في بطن امه ، انه سيعمل اعمال السعداء » قال السائل : فما معنى قول الرسول الاعظم(ص): اعملوا فكل ميسر لما خلق له ؟• فقال الامام (ع) : « ان الله جل وعز خلق الجن والانس ليعبدوه ، ولم يخلقهم ليعصوه فيسر كلا لما خلق له، فالويل لمن استحب العمى على الهدى » •

أي ان كل انسان يجد الطريق امامه موسعا وميسرا لما يختاره لنفسه من طاعة او معصية ، فان اختار الطاعة يسرها الله له ، وان اراد المعصية

ايضا يسرها له ، بل وارادها ايضا عقوبة له على ما اراد .. وهذا ما قصده الامام بقوله : « الويل لمن استحب العمى على الهدى » اي ان الذي آثر العمى ألزمه الله بما الزم به نفسه ، وعامله بما اراده لها .

وعلى هذا يكون لله سبحانه ارادتان : ارادة مستقلة كارادته لخلق الكائنات وارادة تابعة لارادة العبد بما يختاره لنفسه ، ولكن بعد ان يلقي عليه الحجة ، ولا يبقى له من سبيل للاعتذار .

والخلاصة : ان الله جلت عظمته وحكمته خلق الانسان على وضع يستطيع به ان يختار بين الهدى والضلال ، وهذا ثابت بالحس والبديهة. ومن يختار الهداية يجد اسبابها ، ومن يختار الضلالة فكذلك : « فاما من اعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى واما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى ــ ١٠ الليل » .

ليبلوكم ايكم احسن عملا :

وتسأل : ان قوله تعالى : « ليبلوكم ايكم احسن عملا ــ ٧ هود » يتنافى بظاهره مع القول بأن الله سبحانه يعلم الشقي والسعيد قبل ان يخرجا الى هذه الحياة ؟ حيث دلت الآية بظاهرها على ان الله يبتلي عباده بالتكليف ليميز الخبيث من الطيب ، ومعنى هذا انه تعالى لا يميز الا بعد الابتلاء ، وما دام العبد في بطن امه فلا ابتلاء .

الجواب : ان الله سبحانه لا يختبر عبده ليعلم منه ما لم يكن يعلم .. كلا ، فانه اعلم به من نفسه ، وانما يمتحنه لامور :

« ومنها » : ان يترجم ما هو كامن في نفسه الى عمل ملموس ، حيث اقتضت حكمته تعالى ان لا يحاسب الناس على ما يعلمه منهم ، ولا على ما هو كامن في نفوسهم ، بل يحاسبهم على الاعمال ، قال الامام علي(ع): يقول الله :

« واعلموا انما اموالكم واولادكم فتنة » ومعنى ذلك انه يختبرهم بالاموال والاولاد ليتبين الساخط لرزقه والراضي بقسمته ، وان كان سبحانه اعلم بهم من انفسهم ، ولكن لتظهر الافعال التي بها يستحق الثواب والعقاب .

و « منها » : ان يتميز الخبيث من الطيب ، وتظهر حقيقته امام الناس ، فيعاملونه بما يستحق .

و « منها » ان بعض الناس ، او اكثرهم يجهلون حقيقة انفسهم ، ويقولون : « لو سمحت لنا الظروف لكنا كذا وكيت » فيمنحهم الله الاستطاعة ليلقي الحجة عليهم ، ويعرفهم بحقيقتهم وواقعهم .

الهدى والضلال :

وتسأل : لقد ورد في كتاب الله آيات تدل بظاهرها ان الله سبحانه يخلق في العبد الهدى والضلال ، تماما كما يخلق العبد بجسمه وروحه ، ومنها قوله تعالى : « فان الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء — ٨ فاطر » .

وقوله : « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم — ٣٩ الانعام » . وعليه يكون العبد مسيرا ، لا مخيرا ؟.

الجواب : ان الله سبحانه وهب الانسان القدرة والعقل والارادة ، وبالقدرة يفعل ، وبالعقل يميز ، وبالارادة يختار ، ثم ارشده الى طريق الخير وطريق الشر ، وحذره من هذا ، وامره بذاك ، وهو سبحانه — ، بموجب عدله يعامل كل واحد من عباده بما يختاره لنفسه ، فمن اساء الاختيار ، وسلك سبيل الضلال اصبح ضالا ، لا محالة ، وصحت نسبة الضلال اليه ، لانه هو الذي اقدم عليه بسوء اختياره وتصح نسبة الضلال

الى الله . لانه هو الذي جعل هذا الطريق مؤديا الى الضلال ، تماما كما جعل السم سببا للموت ، والتردي من شاهق علة للتحطيم والهلاك .

والانسان في البداية حرّ في ان يقدم او يحجم عن طريق الضلال ، فان اقدم سلبت منه الحرية ، ولزمه الضلال حتما وقهرا .. ونظير ذلك ان يقول قوي لضعيف : اياك ان تدخل هذا الكهف ، والا سددت بابه عليك حتى تموت فيه جوعا وكمدا جزاء لعصيانك وتمردك ، فاذا دخل بعد هذا التحذير ، وسد القوي باب الكهف على الضعيف ، وهلك فيه صح ان يقال : اهلك الداخل الضعيف نفسه بنفسه ، وان يقال ايضا : القوي اهلكه ، ولكن اللوم كل اللوم ، او اشد اللوم على من دخل الكهف ، وهو يعلم انه هالك فيه لا محالة .

وفي القرآن الكريم آيات عديدة وصريحة في هذا المعنى ، منها : « فلما زاغوا ازاغ الله قلوبهم ــ ٥ الصف) . اي انه تعالى اراد لهم الزيغ بعد ان ارادوه لانفسهم . ومنها : « ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بانهم قوم لا يفقهون ١٢٧ البقرة » « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ــ ٣٤ غافر» .. « والذين اهتدوا زادهم الله هدى ــ ١٧ محمد» ..«ويضل الله الظالمين ــ ٢٧ ابراهيم » .. « كذلك يضل الله الكافرين ــ ٧٤ غافر » .. واوضح الآيات دلالة في هذا الباب قوله تعالى « كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين ــ ٨٦ آل عمران » .

ويتضح من هذه الآيات ونظائرها ان افعاله تعالى تنقسم الى نوعين: الاول يهدف الى ما هو مطلوب بالذات ، والثاني يهدف الى ما هو مطلوب بالعرض ، والاضلال من النوع الثاني اي انه تعالى لم يرد الاضلال من العبد على كل حال حتى ولو اراد الهدى لنفسه ، بل اراده من العبد اذا اراده العبد لنفسه ، ونظيره ان تريد الخير والهداية لمن تحب، وترغبه فيها

بكل وسيلة ، ولما اصر وعاند وابى الا الضلال كرهته ، والزمته بكـل ما يترتب على الضـلال من آثار عمـلا بمبـدأ « الزموهـم بما الزموا به انفسهم » •

سؤال ثان : ان الله سبحانه يعلم انه لو خلق هذا الشقي لآثر الشقاء على السعادة ، وليس من شك ان عدم الشقي الفاسد خير من وجوده • واصلح له • لان مصيره الى الخلود في جهنم وعذابها ، وايضا عدمه اصلح للمجتمع لانه يرتاح من شره وضره •

الجواب اولا : ان من شأن الخالـق هو ان يفيض الوجود عـلى الممكنات على ان لا يتنافى ذلك مع عدلـه ورحمته ، والله سبحانه قد احسن الى الشقي الفاسد ، وانعم عليه بالوجود ، وزوده بالقدرة والعقل والارادة ، وهداه النجدين ، ولكنه اختار الشر : فكان هو المسؤول دون غيره •• وعليه يكون عدم الشقي خير من وجوده بالنسبة اليه ، لا بالنسبة الى الخالق •

ثانيا : لو اخذنا بهذا المبدأ لما صح الا تكليف من يعلم بأنه يسمع ويطيع مع ان التكليف يصح توجيهه للجميع •

ثالثا : ان الحجة لا تقوم لله على عباده الا اذا اوجدهم واقـدرهم وكلفهم •

رابعا : ان وجود الشقي فيه شر ، وفيه خير ايضا ، حيث بـه يتميز التقي ويظهر فضله على غيره •

فلسفة النبوة

النبوة

يتفرع هذا البحث عن الايمان بوجود الله تعالى ، ومن انكر وكفر فلا يحق له الحديث عن النبوة والانبياء ، لان الفرع ينتفي بانتفاء الاصل، وايضا الحديث عن نبوة محمد (ص) وغيره من الانبياء يتفرع عن اثبات النبوة كفكرة بصرف النظر عن نبوة الاشخاص ، ولذا نبدأ الكلام قبل كل شيء عن تحديد النبوة من حيث هي ، ثم عن اثباتها ، فان استطعنا ذلك ، تحدثنا عن نبوة الرسول الاعظم (ص) في الفصل التالي :

البعثة :

النبوة بعثة من الله الى عباده ، وسفارة بينه وبينهم، وغايتها ارشادهم الى ما فيه لله رضا ، ولهم خير وصلاح ، فالرسول مبعوث من الله ، ورسالته النصيحة : « ابلغكم رسالات ربي وانصح لكم — ٦٢ الاعراف » • ولكن هل يحتم العقل ان يكون لله رسل الى خلقه وسفراء بينه وبينهم ؟•

الجواب : اذا كان لكل مصلح رسالة الى اهله وقومه فبالأولى ان يكون للخالق رسالة الى خلقه ، واية حاجة للناس باله لا يهتم بهم ، ولا يعنيه من امرهم قليلا ولا كثيرا ؟•

ويمكن ان نقرر حكم العقل بهذا الاسلوب ، وهو بعد ان افترضنا وجود الله سبحانه ، وانه متصف باعلى صفات الكمال والجلال • بعد

هذا الافتراض يلزمنا حتما ان نؤمن بان ما من شيء حسن في ذاته الا والله سبحانه فاعله وليس من شك ان ارشاد من يحتاج الى الارشاد حسن في ذاته وان الناس كل الناس في حاجة الى من يرشدهم الى النجاح والصلاح، فينتج من ذلك ان الله سبحانه لا بد ان يرشد عباده الى ما فيه خيرهم وصلاحهم ، وحيث لا سبيل الى ذلك الا بارسال الانبياء فيتعين ان لله انبياء ورسلا .

وبالاختصار : ان في افعالنا خيرا وشرا ، ونحن نجهل الكثير منها ، والله عالم بما نفعل ونجهل ، فيجب ، وهذي هي الحال ، ان يرشدنا ما يعلمه من صلاحنا باجدى الوسائل ، وارسال الرسل ... واليك هذا المثال للتوضيح : اعمى كاد ان يتردى في حفرة امامه ، وانت قريب منه وعلى مرأى ، فتجاهلته حتى هوى ومات ... ولو تفوهت بهذه الكلمة فقط : « انتبه امامك » لسلم ومع هذا تجاهلت من غير عذر ، لو حصل معك مثل هذا لكنت مذموما وآثما عندالله والناس وعند ضميرك ايضا .. والله سبحانه اجل واعظم ، واعدل وارحم ان يخلق عباده ثم يتركهم سدى يسيرون في طريق الهلاك من غير حارس ودليل .. ان الله ارحم بعباده من الام العطوف بوليدها . كما في الحديث .

هل يغني العقل عن الانبياء : وقال قوم ، وهم البراهمة ، لا حاجة اطلاقا الى الانبياء ، لانهم ان جاءوا بما يوافق العقل ففيه غنى عنهم ، وان خالفوه وجب ردهم والانكار عليهم .

واجيبوا : بأن العقل لا يحيط بكل شيء علما ، بل يدرك شيئا ، ويغيب عنه اشياء ، لا يدركها الا علام الغيوب ، فيبينها سبحانه للناس بلسان انبيائه ورسله .

واصدق شاهد لهذا الجواب ان القرآن الكريم كشف عن كثير من الحقائق التي لم يهتد اليها العلم والعلماء الا بعد الف سنة او اكثر وعلى

سبيل المثال دون الحصر نذكر قوله تعالى : « وجعلنا من الماء كـل شيء حي ــ ٣٠ الانبياء » حيث اثبت العلم الحديث ان الماء مبدأ الحياة، وقوله « وارسلنا الرياح لواقح ــ ٢٢ الحجر » ايضا اثبت العلم ان الرياح تنقل لقاح الازهار الذكور الى الازهار الاناث لتخرج الثمر والفواكه، وقوله: « وما من دابة في الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا امم امثالكـم ــ ٣٨ الانعام » وبهذا قال اهل الاختصاص بعلم طبائـع الحيوانات والطيـور والحشرات ، الى آخر الآيـات التي تتفق نصا وروحـا ، او تتفـق معها الكشوفات الحديثة .

ونعطف على جواب من رد على البراهمة ، نعطف عليـه الحقائـق التالية :

١ ــ ان قول البراهمة واضرابهم لو صح لانسد باب العلم والنصيحة والامر بالمعروف بشتى انواعه ، وباب الاصلاح والمصلحين ، وجـاز لكل انسان اذا ارشده مرشد ، افهم واعلم ان يرد عليه ، ويقول له لي من عقلي غنى عنك وعن تعاليمك .

٢ ــ لقد رأينا او قرأنا ان بعض الذين لا يدينون بالنبوات يعبدون الاحجار والاشجار ، وبعضهم النيران او الكواكب او الحيـوانات ، او البرق والرعد ، والاشباح والارواح ويفضلونها على عبادة الواحد الاحد التي تطهر النفوس من الاوهام والخرافات .. وقرأنا ايضا ان لبعض الامم مجموعة من الآلهة كثيرة وهائلة ... فإله للسمـاء وإله للارض ، وثالث للفضاء بينهما ، ورابع للشعر : وخامس للجمال ، وسادس للحب ، وآخر للبغض ، او للسلم او الحرب ولكل شيء رب يربه حتى القبائل ، لكل قبيلة رب .. اما صفات هذه الآلهة والارباب فعجيبـة غريبة ، فمنهم الطويل الاشقر ، ومنهم الاسمر ، وآخر يعشق الجميلات وينكح البنات الى آخر الاساطير والسخافات .. وايضا قرأنا ان بعض الاقوام الذين لا يدينون

بالنبوة ينكحون امهاتهم وبناتهم ، ومنهم من يأكل لحوم البشر الى ما لا يبلغه الاحصاء من المآثم والمنكرات .. وصدق الله العظيم « ان الانسان لظلوم كفار ـ ٣٤ ابراهيم » .

ومن هنا كان الدين السليم ضرورة لكل انسان بالغا ما بلغ من العلم والعقل ، فان كثيرا من الذين تعودوا اساليب العلم وطرقه الدقيقة في هذا العصر يؤمنون بالخرافات .. قال (غوستاف لوبون) في كتـاب الآراء والمعتقدات « ان العلمـاء تبدو عليهم السذاجـة كما تبدو على الجهلـة الآدميين ... فالعالم قلما يبدو اسمى من الجاهل في الامور التي ليست من اختصاصه ، وبهذه الملاحظة ندرك السبب في ان افضل العلماء يؤمنون باشد الاوهام خطلا » ثم ضرب على ذلك كثيرا من الامثلة منها ان عالمـا كبيرا في عصره كان لا يخرج من بيته الى المختبر الا ومعه قطعة من حبل المشنوق تقيه ـ بزعمه ـ حسد الحاسدين ، وسحر الساحرين » .

واغرب ما قرأت في تأليه الانسان للانسان في عصرنا هـذا ، عصر النور والحضارة ، هو ما ذكره عبدالرحمن عزام في كتابه الرسالة الخالدة، قال ما يتلخص بانه ذهب سنة ١٩٣١ الى جبال النوبة في جنوب كردفان ، فوجد قوما من الزنوج يعبدون واحدا منهم كإله ، ويسمونه « الكجور » ويرفعون اليه الدعاء ويقدمون له القرابين ، ويقدسونـه كل تقـديس ، ويعتقدون بأنه القدير على تصريف الامور الكونية ، وانه هو الذي ينزل المطر من السماء ، فاذا اجدبت الارض ، وهلك الزرع سألوه المطر ، فان تأخر عليهم شكوه الى الحكومة ، ولم يتركوها بحال حتى تأمر بحبسه ، واذا لم ينزل الغيث قتلوه واقاموا غيره مكانه ـ وهنا تذكرت الاعرابـي الذي صنع صنما من تمر ، ولما جاع اكله ـ وقال المؤلف : وقد جالست هذا الرب ، وتحدثت معه بواسطة المترجم ، وفي اثناء حديثي معـه جاءت زوجته ، وكشفت عن ساقها . فأرتني آثار الضرب ... فقال المترجم ان

بعض الذين يعبدون زوجها قد ضربها ، وهي تشكـوه اليك ظانة انـك الحكومة قلت ــ ما زال الكـلام للمؤلف : كيف ، وهـي زوجة الرب المتصف بالقدرة عندهم ؟

ولا ادري كيف نطق عبد الرحمن عزام بهذا التساؤل ، وهو يروي عنهم انهم يقتلون الإله الذين يعبدون ويقدسون اذا لم ينزل الغيث ؟• ان الذي يعبد غير الله الواحد الاحد لا يكثر عليه شيء حتى ولو كان عالما كبيرا في عصره كالذي يحمل حبل المشنوق خوفا من حسد الحاسدين ، وسحر الساحرين كما حدثنا عنه غوستاف لوبون •

٣ ــ من تتبع سيرة الانبياء ، ودرسها بروية وامعان يجزم بانهم اول من دعا الى دين واحد ، وامة واحدة ، والـى الصلاح والاصلاح بشتى انواعه ، وان دعوتهم هي التي غيرت وجه التاريخ ، ولولاهم لما تقـدمت الانسانية خطوة واحدة الى الامام ، ولا كان لها تاريخ وحضارة واية دعوة اسمى واكمل من دعوة الاسلام التي تخاطب العقل والفطرة ، وترتكز على الاقناع والتحرر من الجهل والخرافات ، وتقليد الآباء والاجداد •

٤ ــ ان انكار النبوة والانبياء معناه ان البشرية في غنى عن الـدين والشرائع السماوية واحكامها ، لان الانسان بمواهبه ــ كما يزعم المنكرون يستطيع ان يسد حاجاته في كل زمان ومكان مستقلا عن جميع الاديان •

وقد يبدو هذا صحيحا للوهلة الاولى عند البسطاء السذج ، ولكن الاذكياء يعلمون ان غاية الدين لا تنحصر بتنظيم العيش في هذه الحياة ، بل هي اعم واشمل ، ان غاية الدين ايضا ان يفهم الانسان معنى الحيـاة وقيمتها ومصدرها واهدافها ومصيرها •• وليس من شك ان كل عـاقل يتمنى من اعماقه ان يعيش في حياته هذه حرا كريما ، لا ظالما ولا مظلوما ، وايضا يتمنى بفطرته ان يحيا حياة ابدية سعيدة لا يشوب صفوها ايـة

شائبة ــ لو اتيح له ذلك والاسلام يقف معه ، ويؤازره فيما يبتغيه من الحياة الفانية ، ويرشده الى طريق الحياة الخالدة الراضية المرضية •• ومن جادل وخاصم نحيله الى الدعوة المحمدية التي تقدس العقل ، وتمتدح العلم ، وتساوي بين الناس على اساس الحق والعدل ، نحيله الى كتاب الله وسنة نبيه او على ما كتبه العلماء المنصفون في هذا الموضوع شريطة ان يقرأ ويدرس بتجرد وروية •

هل العلم يغني عن الدين :

وجاء بعد البراهمة من يقول اجل ، ان العقل وحده وبما هو لا يغني عن غيره ، ولا يخرج الانسان من العيش مع الحيوانات في الغاب والكهوف ، ولكن العلوم الطبيعية هي التي تخرجه من الهمجيةوالوحشية الى الحضارة والمدنية ، ومن الظلمات الى النور •

الجواب : ليس من شأن العلوم الطبيعية ولا في قدرتها ايضا ان تفسر القيم الانسانية ورغباتها كالسلم والحرية والمساواة ــ مثلا ــ وانما تصف الحوادث والتجارب وتسجلها ، كما هي في واقعها ، ومن هنا قال كثير من علماء الطبيعة انفسهم ان العلم وحده لا يحقق اماني الانسان ، وانما ينبغي ان يقترن بقيم انسانية وشريعة عادلة توجه العلم الى ما يضمن اعظم قدر من تحرر الانسان وسعادته •

وقال الدكتور فؤاد زكريا في مقال نشره بمجلة عالم الفكر الكويتية ج ١ ــ ٤٤ بعنوان العلم والحرية الشخصية ، قال : « في العصر الحديث اصبحت الصورة التي يرسمها العلم للكون تتصف بالآلية ، ولا تترك مجالا لقيم الانسان ورغباته لقد اصبح العالم موحشا يسير في طريقه المرسوم بدقة وانضباط لا مكان فيهما لمشاعر الانسان •• ان العصر الحديث اوجد انفصالا قاطما بين عالم الطبيعة وعالم الانسان ، وقضىعلى التداخل بين هذين المجالين » •

ونذكر نحن صفة اخرى اضر واخطر من هذا الانفصال ، وهـي ان تلك المصانع والمعامل قد حولت طعام الجياع ، ولباس العراة ، وبيـوت البائسين ومستشفيات المرضى ، وروضات الاطفال ، ومعاهد العلـوم ، حولتها الى اسلحة جهنمية ترعب البشرية بكاملها ، والى آلات التجسس على الدول والشعوب والافراد ، لا لشيء الا للايقاع والاضرار بهم •

ومن اغرب ما قرأت في هذا الباب ان في الولايات المتحدة يوجدبنوك للمعلومات عن اسرار الملايين ، تختزنها العقول الالكترونية ، وتباع تلك الاسرار لمن يشاء ساعة يشاء •• وقد بلغ استخدام هذه الاجهزة حدا يفوق التصور حتى لم يبق لاحد من سر مكتوم •

واخطر من ذلك آلات التصوير التي تنفذ اشعتها مـن الجدران ، وتعكس كل ما فيها حتى مـا يجري في الحمام ، ويـدور على الفراش ، ويكتنز بالخزائن •• وغريبة الغرائب ان هذه الاجهزة تباع علنا بالاسواق، وعلى مرأى من الحكومة ومسمعها حتى ارتفعت اصوات الاحتجاج تنبه الى الخطر الذي تعرضت له الحريات والكرامات •• هذي هـي العلوم الطبيعية التي تغني عن دين الله القائل : « اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ايحب احدكـم ان يأكل لحم اخيه ميتا ــ ١٢ الحجرات » •

والخلاصة : ان احدث النظم التي يسمونها بالعلمية لا تغني عن دين الله شيئا ، لانها لا تعبر الا عن الذين يصنعونها ، ولا تعكس الا اطماعهم واهواءهم •

وقال احمد امين المصري في بعض ما كتب ونشر : « ان كان العلـم في كل آماله يحقق رغبـة الانسان من حيث مادتـه ، فالدين يحقق امله وطموحه من حيث نفسه وقلبه ، لقـد اراد الماديون ان يؤسسوا نظامـا

للاخــلاق على العقل البحت فلم يفلحوا • ان الاخــلاق اذا كان يحميها القانون فقط او الحكومــة او الضمير او الرأي العــام لم تكن اخلاقــا محصنة ، فكل هذه وسائل لا تمنع الاجرام ، فكم من الجرائم يستطيـع الانسان ارتكابها ولا يصل اليها القانون ولا الحكومة ولا الرأي العام ، وما سمي بالضمير ليس الا مرآة منعكسة للعرف والتقاليد فالضمير في الهند كان يسمح للزوجة ان تدفن حية مع زوجها ، والضمير في امريكــا يسمح للامريكي الابيض ان يعــامل الزنجي معاملة الانسان للغنم ، والدين هو الذي يسد هذه الثلمة ، فيربط قلب الانسان بربه ، وضميره بإلهه ، وإلهه مطلع على خفايــاه يحاسبه حتى على نياته ، ويراقبــه حتى في خلجــات نفسه » •

محمد والقرآن

في فصل اثبات الخَالق حاولنا ان نعتمد على مبادىء اولية ، وحقائق يقينية في منتهى الوضوح ، ونحاول هنا ايضا وفي كل ما نكتب ان نسير على هذه السبيل . ومنه تعالى نستمد العون والتوفيق .

القرآن ومعجزات الانبياء

قالوا : كان لكل نبي معجزة تفسرها حوادث عصره وتعين نوعها الظروف التي كانت تحيط به ، ثم تذهب بذهاب تلك الظروف والحوادث، او بموت النبي كعصا موسى ، وابراء الاكمه والابرص على يد السيد المسيح ، اما معجزة الرسول الاعظم فهي القرآن ، والقرآن باق على مدى الايام ، وقد تفرد بهذه الفضيلة نبينا محمد وامتاز عن سائر الانبياء .

وهذا القول صحيح وصادق في واقعه ، ولكن لا يواجه به غير المسلم بخاصة المتعصب المتعنت ، لان له ان ينكر ويقول : اول الكلام ان القرآن معجزة تثبت نبوة محمد .

والذي يجب سلوكه مع المنكر هو ان نقول له : ان القرآن تتوافر فيه جميع الصفات والمؤهلات التي تجعله موضوعا للبحث والدرس في انه هل هو معجزة خارقة للعادة شكلا ومضمونا في كل مكان وزمان ، وعلى مدى العصور والاجيال ، اولا شيء فيه من هذه الصفات والمؤهلات ، بل ان حاله تماما كحال الانجيل والتوراة . وغيرهما من المؤلفات والمصنفات؟.

وليس من شك ان غير القرآن من الكتب •• حتى التوراة والانجيل لا تتوافر فيه هذه الصفات والمؤهلات • وبالتالي لا يصح ان يكون موضوعا لهذا النزاع والاختلاف •• والدليل على ذلك حسي ويقيني من وجوه ، وهي :

اولا : انه ما من يهودي او نصراني نجرأ حتى على الدعوى والزعم بان توراته او انجيله معجزة ، او شبه معجزة •• لا في مبناه ولا في معناه •• وايضا ليس في واحد من الكتابين تصريح بذلك ولا تلميح على عكس القرآن ، كما ترى في الآيتين التاليتين :

ثانيا : ان القرآن الكريم هو الكتاب السماوي الوحيد الذي تحدى المعاندين له في كل زمان ومكان ، وقال لهم بلسان واضح وفصيح : «فأتوا بسورة من مثله وادعوا شركاءكم من دون الله ان كنتم صادقين فان لم تفعلوا ــ ٢٤ البقرة » •

وقال ايضا ، « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ــ ٨٨ الاسراء»• ومضى على هذا التحدي اكثر من الف وثلاث مئة سنة ، وما اتى ولن يأتي احد بمثله على الرغم من كثرة خصومه وعلمهم ومقدرتهم •• ومن اجل هذا آمن به علماء وفلاسفة كثيرون ولا يزالون يدخلون في دينه ، ولن يزالوا على مدى العصور والاجيال •

ثالثا : كل معجزة من الانبياء كانت خاصة بعصره وتاريخ قومه لا تتعداه الى غيره • كعصا موسى ، واحالة الماء خمرا في عرس « قانا الجليل » على يد السيد المسيح ، كما قال الانجيل ، او ابرائه الاكمه والابرص كما يقول القرآن ••

ولا شيء على الاطلاق في الدنيا بكاملها نطق بلسان المقال او الحال،

وتجرأ ان يقول : انا المعجزة الكبرى مدى الدهر لفلان ابن فـلان ، وان الله قد اوجب على جميع عباده بلا استثناء طاعتي وطاعته ، وهـذا دليلي البالغ القاطع ، وهو التحدي .. ابدا لا قائل بهذا الا القرآن الكريـم ، معجزة محمد الخالدة على مدى العصور والاجيال .. ذلك بانه « كتـاب احكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيـم خبير ١ ـ هود » . وبه آمنت وصدقت ملايين الملايين على مدى القرون .

وبهذا يتبين معنا ان المعجـزة التي يدعيها المسلمون لمحمـد (ص) ليست عصا ، ولا ماء يحول الى خمر ، ولا اي لون من الوان المادة التـي تذهب وتزول مع الاحوال والايام ، بل هي روحية عقلية ، لهـا مبـادىء واحكام انسانية تطمئن بها النفوس ، وتذعن لها العقول ، وتصلح لحيـاة الناس كل الناس في جميع الميادين ، وعلى كر العصور واختلاف الامـم ، لانها تهدي باسسها الى التي هي اقوم ، ومن ارتاب وتردد قالت له معجزة محمد : « فاتوا بسورة من مثله » .

هذا هو الفارق بين معجزة محمد ، ومعجزة غيره من الانبياء، وبهذه المعجزة اي بالقرآن ونظامه وشريعته كان محمد سيد الانبياء وخاتمهم ، وكانت رسالته عامة وخالدة الى آخر يوم تماما كمعجزته .. « وما ارسلناك الا كافة للناس بشيرا ونذيرا ـ ٢٤ فاطر » .

« وما ارسلناك الا رحمة للعالمين ـ ١٠٧ الانبياء » . امـا الانبياء السابقون فشريعتهم خاصة كمعجزاتهم ، والذي يؤيد هذا انه لا اشارة في التوراة او في الانجيل الى ان موسى او عيسى هو رسول الله الى الناس كافة على تعاقب عصورهم ، وتباين لغاتهم ، او انه خاتم النبيين ، ولا احد من الانبياء السابقين ـ على محمد ـ وصف رسالته بالعموم والشمول ، او نفسه بخاتـم المرسلين ، بل منهم من بشر بمحمد من بعـده ، وتأتـي الاشارة الى ذلك .

هل لمحمد معجزة غير القرآن ؟

يرى البعض انه لا معجزة لمحمد (ص) الا القرآن ، اما نحن فنؤمن بان معجزاته لا يبلغها الاحصاء ، ذلك بان على الحكيم ان يخاطب كل قوم بلغتهم ، وبما تستسيغه عقولهم كي تتم الحجة عليهم ، والا كـانت الحجة لهم عليه ، ولا تتم الحجة بحال ، ويستحيل أن تتم الا اذا كانت صحيحـة في نفسها ، وواضحة في بيانها واسلوبها كنور الشمس بحيث لا تدع منفذا لاية شبهة في ذهن المخاطب .. والا فان « الحدود تدرأ بالشبهات » .. وبحيث يعد المنكر مكابرا ومتعنتا في نظر العقلاء جميعا . واشرنا الى ذلك في بعض ما تقدم .

وعلى هـذا ينبغي ان تتنوع المعجزة وتختلف باختـلاف المـوارد والاشخاص ، كما استدعت حكمته سبحانه ان يباهل نبيه الكريم نصارى نجران .. هذا اذا كان طالب المعجزة يبتغيـها بصدق ، واخلاص ، امـا الكاذب المتعنت الذي لا يجدي معه شيء فيقتصر معه على القرآن ، لان اعجازه عام لا يختص بعصر دون عصر ، ولا بفئة دون فئة ، او بفرد دون فرد .

والذي يدلنـا على ان معجزات الرسول الاعظـم (ص) متعـددة ومتنوعة ان رجل الدين فيما مضى كان يستدل على نبوة محمد بما جاءت به الاخبـار من تكلم الحصى ، وسعي الشجرة اليه ، ونبع الماء من بين اصابعه .. الى غير ذلك من المعجزات التي انهاها بعضهم الى اربعة آلاف واربعمئة واربعين معجزة ، كما في البحار وكان الناس يتقبلون هذا آنذاك ، أما اليوم حيث يتطلـع العالم الى حياة افضل فانا نستـدل على نبـوة محمد (ص) ــ فيما نستدل : بانه خاطب العقل وحارب الجهل ، وساوى بين الناس ، ووقف مع المستضعفـين ، وقاوم الطغاة المترفـين ، واخرج بشريعته وتعاليمه العالم من ظلمات التوحش والهمجية الى نور الحضارة

والمدنية ، وبفضله نزع رعاة الابل التيجان عن رؤوس الجبابرة ، والقوا بها تحت اقدامهم .

وقد تستدعي الحكمة ان لا تعرض المعجزة على الشخص اطلاقا ، كما لو اكتفى بمجرد شعوره واحساسه ، فقد روى الرواة ، وفيهم ابن حنبل والبخاري ومسلم .

« ان رسول الله (ص) بينا هو في المسجد اذ دخل رجل . وقال : ايكم محمد ؟.

فارشد اليه . قال الرجل لمحمد (ص) : اني اسألك فمشدد عليك في المسألة فلا تجد علي في نفسك .

قال النبي : سل ما بدا لك .

قال الرجل : اسألك بربك ، ورب من قبلك : هل ارسلك الله الى الناس كلهم ؟.

النبي : اللهم نعم .

الرجل : انشدك الله : هل امرك ان تصوم هذا الشهر من السنة ؟. اليوم والليلة ؟

النبي : اللهم نعم .

الرجل : انشدك الله : هل امرك ان تصوم هذا الشهر من السنة ؟.

النبي : اللهم نعم .

الرجل : انشدك الله : هل امره ان تأخذ الصدقة من اغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟.

النبي : اللهم نعم .

الرجل : آمنت بما جئت به ، وانا رسول قومي اليك ، انا ضمام ابن ثعلبة اخو بني سعد بن بكر .

والخلاصة : ان معجزات الانبياء على نوعين : خاصة كابراء الاكمه ، وعامة كالقرآن ، ومعجزات الانبياء السابقين كلها خاصة لا تتعدى زمانها، وما لواحد منهم معجزة تشمل وتعم ، اما محمد (ص) فله معجزات خاصة ، كثيرة ومتنوعة ، وله وحده المعجزة العامة الخالدة ، وهي القرآن، ويأتي الكلام عن اعجازه .

اما قول من قال بانه لا معجزة للرسول الاعظم الا القرآن لان غيره يتنافى مع قانون الطبيعة اما هذا القول فرده **اولا** : بأن اعجاز القرآن يتنافى ايضا مع طبيعة الانسان ، والا امكنه ان يأتي بمثله . **ثانيا :** بان الطبيعة بما فيها من كائنات ترجع الى اصل واحد ، هو الله ، وارادة واحدة ، هي ارادته التي تقول للشيء : كن فيكون ... وما من كائن على الاطلاق له مع الله سبحانه ارادة ولا قانون ولا خصائص ، ولا اي اثر ، بل لا وجود ايضا .. وله مع غير الله وجوده وخصائصه وآثاره ، هذا هو الجواب الحق فيما نعتقد ، وما عداه اوهام وتكثير كلام .

وتجدر الاشارة الى ان المعجزة ليست من باب العجز في المقدور ، لا في القادر كاجتماع النقيضين او ارتفاعهما ، وكدخول الجمل في سم الخياط ، والالم يكن للمعجزة من موضوع ، وكان الكلام عنها جنون وهراء .

نبوة محمد ورسالة الاسلام

وجّه الي هذا السؤال شيخ افريقي يطلب العلم في قم .. وفي اللحظة الاولى لسؤاله تبادر الى ذهني انه يشعر بمسؤولية الدفاع عن دينه ، وانه يرغب الي ان امده وازوده بما املك من وسائل الدفاع ،

فاجبته ، وانا اشرح هنا وافصل ما اجملته هناك ، لان الكتابة بعد التفكير غير الجواب السريع ، اجبته وقلت : ان الاسلام هو رسالة محمد بالذات (ص) على انها وحي من الله ، لاصنع محمد ، واصدق الادلةعلى هذه الحقيقة هو القرآن الكريم ، وما على المشكك والمتردد الا ان ينظر اليه بروية وامعان ، فان توافرت فيه خصائص الوحي من الله فالاسلام حق وصدق ، والا فلا وحي ولا اسلام •

ونحن نسأل من تشكك وارتاب في نبوة محمد (ص) ورسالته ، او قطع وجزم بذلك بلا تردد ، نسأله هل انت من الذين ينكرون وجود الله من الاساس كالماديين ، او من الذين يؤمنون بوجوده ، وينكرون ان يكون لله وحي ، وللانسان بعث كاصحاب الدين الطبيعي [1] او انت من الذين يؤمنون بالله وكتبه ورسله ، ولكن ينكرون نبوة محمد ورسالته بالخصوص كالنصارى •• فان كنت من النوع الاول فلا يحق لك ان تجادل وتخاصم في النبوات والكتب السماوية فضلا عن القرآن ونبوة محمد (ص) ولك كل الحق ان تطالب بالدليل على وجود الله ، وقد اوضحناه في فصل سابق بعنوان اثبات الخالق ، فان اقتنعت فذاك ، والا قلنا مع نبينا الاكرم « لكم دينكم ولي دين » • وان كنت من النوع الثاني فنفس الشيء ، ولك ان تطالب بالدليل على وجوب الايمان بكتب الله ورسله ، وقد ذكرناه في الفصل المتقدم بعنوان النبوة •

وان كنت من النوع الثالث اي تؤمن بالله وكتبه ورسله ، ولكن تنكر نبوة محمد ، وتقول : ان القرآن بشري ، لا إلهي ، ان كنت هكذا سألناك هل تعتقد بان القرآن من عند محمد وابداعه بالذات ، او تعتقد بان محمدا اخذه من مخلوق مثله • والفرض الاول ابعد من كل بعيد ،

---

(١) هم قوم يؤمنون بخالق الطبيعة ، وينكرون البعث والنبوات ، وسموا انفسهم باصحاب الدين الطبيعي لان ايمانهم بالخالق تفرضهالبحوث الطبيعية دون غيرها من المغيبات .

لان تفسير اي كتاب وتقييمه والحكم عليه يجب ان يكون في ضوء شخصية مؤلفه وظروفه الاجتماعية ، وما سبقه واحاط به من عوامل تؤثر في عقله وعاطفته ، ومهما كان الانسان قويا في شخصيته ، وعبقريا في مواهبه فيستحيل عليه ان يتحرر من جميع آثار البيئة التي عاش فيها حتى كأنه غريب عنها لان الانسان ابن الارض التي ولد منها وعاش عليها .

وعليه ، فاذا قارنا بين القرآن شكلا ومضمونا ، وبين بيئة محمد وعواملها تبين معنا ان الفرق بينهما هو عين الفرق بين العلم والجهل ، والظلم والعدل ، والحق والباطل ، والهدى والضلال ، وقد اشار القرآن الى هذا بقوله : « هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وان كانوا من قبل لفي ضلال مبين — اول الجمعة » . كانوا في ضلال مبين من الشرك وتعدد الآلهة ، ولما جاءهم محمد (ص) بالتوحيد عجبوا وقالوا : « هذا ساحر كذاب اجعل الآلهة إلها واحدا ان هذا لشيء عجاب — ٥ ص » .

وكانوا يحللون الربا والزنا والخمر والميسر ، والكذب والغيبة ، والسلب والنهب ، وقتل النفس المحرمة ، كما تنابزوا بالالقاب ، وتعصبوا للانساب ، وتفاخروا بالاموال والاولاد وقطعوا الارحام ، ووأدوا البنات خوفا من العار ، وقتلوا الاولاد خشية الاملاق وجعلوا المرأة في عداد الحيوانات .. الى آخر الرذائل والبربرية التي حرمها محمد وانكرها اشد الانكار على قومه واهل بلده ولاقى منهم لذلك من الوان الاذى ما لم يلقه نبي من قبله .. اذن فاين وجه الشبه بين محمد وبيئته وما هي الافكار التي استوحاها وتأثر بها من ظروفه ومحيطه . واذا كان محمد بافكاره وميوله انعكاسا لبيئته وتقاليد قومه فلماذا جيشوا الجيوش لحربه وقالوا عنه فيما قالوا : ساحر وشاعر ومجنون وكذاب واذا اضفى النبي الصبغة الدينية على دعوته ليستجيب اليه العرب عن هذا الطريق

كما قال احد المستشرقين اذا كان هذا صحيحا فلماذا سفه النبي احلامهم وسب آلهتهم التي يعبدون وآباءهم الذين يقدسون ؟

لقد كانت دعوة رسول الله (ص) غريبة لدى العرب •• تفوق عقولهم وتصورهم حتى انهم لم يجدوا لها تفسيرا الا السحر « وقال الكافرون للحق لما جاءهم ان هذا الاسحر مبين ـ ٢٣ سبأ » • وعلى الرغم من هذا وغير هذا يكابر اعداء الاسلام وخصومه ويصرون على ان محمدا يرتبط في رسالته بحياة قومه ايما ارتباط على حد تعبير المستشرق الانكليزي « جب » ••

ابدا •• لا عامل من بيئة ، ولا سبب من ذات ، ولا شيء على الاطلاق الا الوحي من السماء •

وتسال : ان الاشخاص الذين يقاسون بظروفهم ، هم العاديون ، او العباقرة غير محمد صاحب الشخصية المبدعة الخلاقة التي تعطي البيئة ولا تأخذ منها ، وتتأثر به ، ولا يتأثر بها ؟•

ونجيب اولا : اجل ، ان شخصية رسول الله لا تدانيها اية شخصية عبقرية ، ولكن العبقرية ـ مهما سمت ـ فانها لا تأتي ولن تأتي بالمعجزات وخوارق العادات •• فالعبقري الذي لم يدرس فن الطب ـ مثلا ـ يستحيل ان يؤلف كتابا فيه صحيحا وسليما في جميع اقواله ونظرياته بخاصة اذا كان فيه كشوف جديدة ••• ولو افترض ان جاءنا بكتاب مثل هذا لجزمنا في الحال ومن غير تردد بأن وراءه عالما قديرا في فن الطب هو الذي وضع هذا الكتاب ، واعطاه للعبقري ، او العبقري سرقه منه •

وهذي هي الحال بالنسبة لمحمد (ص) ، فلقد جاء بالقرآن ، وفيه اشياء واشياء لا يمكن ان تكون الا من خالق الكائنات ، كالاخبار بالمغيبات وعجائب الارض والسموات ، وخلق الانسان وغيره من

الحيوانات والحشرات ، وفيه ألنظام الكامل الشامل لشتى ميادين الحياة .. الى غيرهـا من الحقائق الكونية والانسانية التي يعجز محمد والعلم في عصره عن معرفة القليل منها .. اذن ، فلا بد ان تكون تنزيلا مـن لدن حكيم خبير على قلب الرسول الامين : « ما كنت تدري ما الكتـاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا ــ ٥٢ الشورى ».

ثانيا : ان للعبقري المبدع علامات تدل عليه ، وللثائر المصلح صفات تميزه عن غيره ، والنبي يشارك العبقري والمصلح ، في كل فضيلة ، ما في ذلك ريب ، ولكنه يمتاز بصفات لا يشاركه فيها احـد ، ان العبقري او المصلح يستوحي آراءه ومبادئه من الارض ، لا من السماء ، يستوحيهـا من عقله وبيئته ، والنبي يتلقى الوحي من السماء ، من الله جلت عظمته ، والوحي معصوم ، والعقل يخطىء ويصيب ، والبيئة شهوات واهواء .

وايضا العبقـري يبـدع في شيء دون شيء ولا يبدع في كل شيء والمصلح يهدف الى ناحية واحدة او اكثر من حياة فئة او امة في بقعة مـن الارض ، ولا يهدف الى اصلاح اهل الارض جميعا في كل شيء وفي كـل زمان ومكان .

اما محمد فهو رسول الحق والعدل الى الانسانية جمعاء لينقذهـا من الجهالة والضلالة ، ويحملها على نهج الهداية والنجاة .. واين العبقري والمصلح من هذا او شبه هذا ؟.

وبعد ، فان محمدا لا يقال : هو عبقري خلاق ، ولا مصلح ثائر ، ولا عظيم خالد .. كلا ، والف كلا ، فما اكثر العباقرة والمصلحين والثائرين !. ان محمدا رحمـة مهداة من إله السمـاء لاهل الارض اجمعين : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين » . ورحمة الله سبحانه فوق العبقرية والعباقرة ، والاصلاح والمصلحين ، وفوق العظمة والعظماء الخالدين ، بل فوق الناس

مجتمعين والسموات والارضين ، لانها تتسع لكل شيء ولا يتسع لها شيء الا قلب محمد ومن سار على طريقته وعمل بمبادئه وسنته انتهى •

القرآن والتوراة والانجيل

قدمنا ان الذي يؤمن بالله ورسله ، وينكر نبوة محمد (ص) امـا ان يزعم بان القرآن من محمد بالذات ، واما ان يدعي ان محمدا اخذه من غيره ، وابطلنا الزعم الاول بكلام مفصل ومطول ، ونجيب الآن عن الزعم الثاني ، وهو من سموم المبشرين الذين ينفثونها ضد الاسلام والمسلمين ، وتتلخص اقوال المبشرين ضد القرآن بانه : مأخوذ من التوراة والانجيل ومن بعض الرهبان والقسيسين !••

وقال صهيوني عريق : انبثقت المسيحيـة من اليهودية ، وانبثـق الاسلام منهما معا !• ونجيب •

١ ــ اثبت التاريخ ان اليهود كانوا اعدى اعداء محمد (ص) ، وانهم حاربوه وكادوا له ، والبوا عليه العرب ، ولم يكفوا عنه الا بقوة السلاح، وايضا جرت بين رسول الله (ص) وبين النصارى بعض الحروب والغزوات كغزوة مؤتة وتبوك ، كما جادله نصارى نجران في الدين والسيد المسيح، حدث هذا ، وما نقل ناقل صادق ولا كاذب ان نصرانيا او يهوديا احتـج على رسول الله بانه اخذ القرآن من التوراة والانجيل ، على ان القرآن رد هذا الوهم قبـل ان يتفـوه به ناطـق ، وذلك حيث تقول الآية ٤٩ من العنكبوت : « وما كنت تتلو من قبلـه من كتاب ولا تخطه بيمينك اذاً لارتاب المبطلون بل هو آيات بينات في صدور الذين اوتوا العلم وما يجحد بآياتنا الا الظالمون » •

اجل ، ان كان القرآن قد اخذ بعض الآيات من التوراة والانجيـل فهي هذه : « قل يا اهل الكتاب لستم على شيء ــ ٦٨ المائدة » •• « قل

يا اهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ـ ٧١ آل عمران » •• « قل يـا اهل الكتاب لا تغلوا في دينكم غير الحق ـ ٧٧ المائـدة » •• لقد كفر الذين قالوا ان الله ثالث ثلاثة ـ ٧٣ المائدة » •• « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت ايديهم ولعنوا بما قالوا ـ ٦٤ المائدة » ••

مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل اسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ٥ ـ الجمعة » الى آخر الايـات التي نددت باليهود والنصارى ، ونعتتهم بالكفر والافتراء على اللـه ، وتحريف كتبه وقتل رسله ، ووصفتهم بكل قبيح •

٢ ـ ما هو وجه الشبه بين القرآن ، وبين التوراة والانجيل ؟• هل هو في الشكل او المضمون او هما معا ، اما الشكل والاسلوب فان تلامذة المدرسة الابتدائيـة لا يعجزون عن تقليد التوراة والانكيـل •• ويأتي الحديث عن اسلوب القرآن ، واما وجه الشبه في المضمون فتساءل : هل تشبه التوراة والانجيل القرآن الكريم في تنزيه الله عن الشريك والولد ، او في الشريعة واحكامها او في الحرص على حقوق المرأة او في الاخبار عن المغيبات ، وعن عجائب الارض والسموات •• الى غير ذلك من الحقائق •

هـذا ، الى ان القرآن تحدث عن انبياء لا ذكر لهـم في الانجيـل والتوراة لا تصريحا ولا تلميحا ، كهود وصالح وذي الكفل ، كما ان في التوراة انبياء لم يشر اليها القرآن كعاموس وميخا وناحوم وغيرهم •••

وقد شهد علمـاء الغرب بأن المسلمين بفضل القرآن وتعاليمه ملأوا الشرق والغـرب بعلومهم وحضارتهم ، قال « سديو » احد وزراء فرنسا في كتابه تاريخ العرب :

« كان المسلمون متفردين في العلم والفلسفة والفنون الجميلة وقد

نشروها اينما حلت اقدامهم ، وتسربت عنهم الى أوروبا ، فكانـوا سببا لنهضتها وارتقائها ، ومعلمين للاوربيين وملقنين لهم النهوض والمدنية » .
وامثال هذه الشهادة كثير وكثير ، ومع هذا يصر اعـداء الاسلام على ان القرآن اخذ من التـوراة والانجيل ، وان المسلمين اخـذوا الادب من الفرس ، والحكمة من الهند ، والفقه من الرومان ، والفلسفة من اليونان، وليس لهم فيها كثير ولا قليل ... الى مثل ذلك من العداء والافتراء .

وآمنت ، وانا اقرأ هذه الاكاذيب ، ان افضل وسيلة للمسلم ، اذا احب ان يكون على يقين من دين آبائه واجداده ــ ان يقرأ ما يقوله اعداء الاسلام عن الاسلام ...

٣ ــ ان كل ما يستدعي الشك في القـرآن كوحي من الله ــ لو فرض وجوده ــ فهو يوجب الشك والريب في التوراة والانجيل بطريـق اولى ... وبالمناسبة ان اليهودية سبقها كثير من الانبياء ، منهـم نـوح وابراهيم ، وكان في عهد موسى وعيسى ديانات وكهانة وسحرة ... فكل ما يقوله اليهودي والمسيحي في حق القرآن ومحمد يصح للمسلم انيقوله بالذات في حق التوراة والانجيل وموسى والمسيح ... بل ويزيد عليـه ايضا .

الاسلام والصهيونية والاستعمار :

ولمناسبة ما ذكرناه عن اعـداء الاسلام نشير الى ان الصهيونيـة خصصت جماعة من اصحاب الادمغة للافتراء على الاسلام ، ووجهت لهذه الغاية الصحف الكبرى والاذاعات ، والصور المتحركة ، وعددا غير قليل من المؤلفين والممثلين ودور النشر ، وتعاونت مع بعثات التبشير المسيحي التي تملك مؤسسات ومراكز تنتشر في انحـاء البلاد الاسلامية بخـاصة افريقيا ، منها ٤٠ مركزا للسويد ، واكثر من ٥٠٠ للنروج و ٤٥٠٠ لامريكا عدا ما لايطاليا وفرنسا وانكلترا .. قال العقاد في كتاب « ما يقال عـن

الأسلام » « ان الغربيين يعرفون أكاذيب الصهيونيين ، وانما يساعدونهم، لان خطر الاسلام عليهم اكبر من خطر الصهيونية ، وما يماثلها من سائر الاخطار » .

ونقل الشيخ محمد الغزالي في كتابه « معركة الاسلام » عن « لورانس براون » انه قال : « لقد كنا نتوجس الخوف من خطر اليهود والخطر الشيوعي ، والخطر الاصفر . ثم تبين لنا ان اليهود اصدقاؤنا والبلاشفة حلفاؤنا ، اما الخطر الاصفر فهناك دول كبرى تتكفل بالقضاء عليه — يشير بهذا الى الخلاف بين الروس والصين — ان الخطر الحقيقي يكمن في نظام الاسلام ، وفي قدرة الدين الاسلامي وحيويته ، انه الجدار الوحيد الذي يقف في وجه الاستعمار » .

اعجاز القرآن :

تكلم العلماء كثيرا عن اعجاز القرآن ، واطالوا الكلام [١] وحاولوا جاهدين ان يكشفوا اسرار هذا الاعجاز ، او عن بعضها ، وربما خيل الى واحد منهم — على الاقل — انه قد ادرك ما اراد ، ولكن هيهات ! ، انى يكون له ذلك . والمفروض ان القرآن اذ اعجز العقول والقرائح ، فبالاولى ان يعجز الالسن .

اجل ، ان العالم يفهم المعنى الذي يتبادر الى ذهنه من لفظ القرآن وظاهره ، ويستحيل عليه ان يحيط علما بجميع معانيه واسراره ، وعلومه وانواره .. وعلى هذا فاذا تحدث العالم عن اسرار القرآن فانما يتحدث عن اعجاز ما فهمه هو من لفظ القرآن وظاهره ، لا عن اعجاز القرآن كما هو في واقعه .. حتى هذا المعنى الظاهر ينطوي على كثير من الخصائص والاسرار ، ولا يعرف العالم منها الا قليلا .. واذن هو يعبر عن هذا النزر

---

(١) انظر : دلائل الاعجاز للجرجاني من القدماء ، والمعجزة الخالدة لهبة الدين الشهرستاني من الجدد .

القليل الذي يعلمه •• ومن اراد الاطلاع على هذه الرشحات او المحاولات فليرجع الى ما كتبه الجرجاني والباقلاني وابو عيسى الرماني ، وغيرهم ممن الفوا في هذا الباب •• اما نحن فنشير فيما يلي الى سر الاعجازومكان التحدي باختصار جامع وسريع •

التحدي :

نحن نقر ونعترف بان الذين كفروا وجحدوا بالقرآن الآن وقبل الآن كثيرون جدا ، ويعدون بالملايين ، لا بمئات الالوف ، وكيف ننكر هذه الحقيقة ويشهد لها الوجدان والبديهة !• ولكن هذا الاعتراف من المؤمنين يقابله الاعتراف من الكافرين بان القرآن تحداهم ــ مدى الدهر ــ على ان يأتوا بمثله ، ويدعوا من شاءوا ، وما ارادوا •• واذا لم نجد نحن ملجأ ولا مفرا من الاعتراف بوجود من جحد وكفر فان الجاحد الكافر لا ملجأ له ايضا ولا مفر ، الا الاذعان والتسليم بان القرآن تحداهم وما زال،وبان التاريخ ما حفظ محاولة ناجحة لتقليده على كثرة اعدائه ، والجاحدين به، وبمن نزل على قلبه •

نحن نعترف بوجود هؤلاء الكافرين ، وهم بحكم الحس والبديهة يعترفون بهذا التحدي •• كيف لا • والقرآن يعلن بلسان واضح وصريح : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على ان يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ــ ٨٨ الاسراء » •• حتى فصحاء العرب وبلغائهم تصدوا للقرآن ، واعترفوا بالعجز عن تقليده ، وقال قائلهم وسيدهم الوليد بن المغيرة : « ان له لحلاوة، وان عليه لطلاوة، وان اعلاه لمثمر ، وان اسفله لمغدق •• وانه ليعلو ولا يعلى عليه •• وقال آخرون •• محمد ساحر وشاعر » •• وهذا القول اقرار واعتراف بان القرآن يذهل العقول ، ويخرس الالسن •

اما سر هذا الاعجاز فلا يكمن في نفس اللغة ، وان سمت وعظمت ،

ولا في اختيار الكلمات ، وسبكها وتشكيلها ، ووضع كل كلمة في مكانها، كما قيل ، فكم من اديب يتذوق نكهة الكلمة ويضعها في مكانها من شعره او نثره ويشكل اسلوبا بالغ الروعة في نعومته وطراوته •• كلا ، ليس السر في التشكيل والتجميل •• بل هناك سر ابعد واعمق •• وهو ذات المتكلم وجلاله وعظمته •• ويستحيل الفصل بين الاسلوب ، اي اسلوب، وبين صاحبه باتفاق اهل الخبرة والاختصاص ، قال الكاتب العالم الفرنسي بافون : « الاسلوب هو صاحب الاسلوب » وقال عارف آخر : ليست الكتابة الا التعبير عن طبيعة الكاتب وطابعه وقال خبير ثالث : الاسلوب جزء من صاحبه •

ومن اجل هذا يستحيل على الانس والجن ان يأتوا بمثل هذا القرآن او بسورة من مثله ، تماما كما يستحيل ان يأتوا بمثل هذا الكون، او بجزء من مثله •

ونفترض ـ جدلا ـ وفرض المحال ليس بمحال ، نفترض ان المخلوق يستطيع ان يقلد خالقه ، وخالق الارض والسموات ،ولو في اختيار الكلمات وتشكيل العبارات ، وان في مقدوره وامكانه ان يأتي بمثل القرآن حلاوة وطلاوة ـ على حد تعبير الوليد بن المغيرة ـ فهل يستطيع ان يأتي بكتاب تحدث تلاوته في القلب ما يحدثه كتاب الله من الرهبة والخشوع ، ويكون له من الآثار ما للقرآن في الاخلاق والآداب والتشريع والتاريخ والفلسفة •• الى غير ذلك من العلوم والحكم التي فتحت ابواب الجد والعمل للدنيا والآخرة ، واوجدت امة بعد العدم ، وجمعت صفوفها بعد الشتات ، وامدتها من القوة ما اكتسحت به دولتين عظيمتين تماما كامريكا وروسيا في هذا العصر واقامت على انقاضهما امبراطورية تمتد شرقا وغربا ، وتملأ الدنيا حضارة وعلما ؟•

هنا يكمن سر الاعجاز في كتاب الله وهنا مكان التحدي فيه ••

وهذا التحدي باق ما بقي الدهر .. اذن رسالة محمد باقية ما بقي الدهر، وبدوامها وخلودها انسد بـاب الوحي ، وختمت النبوات ، والشرائـع السماوية .

القرآن يتحدى الطغاة المعاندين

وتسأل : هل الذين اسلموا وآمنوا بمحد (ص) في عهده كلهم او جلهم آمنوا بسبب تحدي القرآن ؟.. ولو صح هذا لكان الاسلام جديرا باسم دين التحديات وعرض العضلات من بين الاديان كلها..

الجواب : كلا .. كيف والاسلام دين الهداية والاخاء ؟ على ان الناس او اكثرهم لا يهتمون بالتحديات ، وبالخصوص اذا كان القصد من التحدي مجرد الايمان والاعتقاد بعظمة المتحدي ولو قام الاسلام على مجرد التحدي لما دخل الناس فيه بالملايين ، ولا كان له الآن وقبل الآن عين ولا اثر .. ان التحدي ــ كما تدل اسباب النزول ــ قد جاء في القرآن الكريم لكبـح المعاندين ، وافحام المشاكسين ، فان جماعة من عتاة الشرك وطغاته كـأبي سفيان وابي جهل قد اغرقوا في التعنت ، وتجاوزوا في اذى الرسول كـل حد ، ولم يرتدعوا بحلم ، ولا باية وسيلة ، فتحداهم القرآن ، ليفتضحوا امام الملأ حيث الفضيحة أولى بهم وأجدى ، ولو انهم سكتوا لسكت عنهم القرآن .

وهذا النوع مـن الناس موجود في كل زمان ومكـان ، والقرآن يتحداهم اينما كانوا ومتى وجدوا ، ومن كف الاذى عن الاسلام ونبيـه فهو غير مقصود بالتحدي ، قال تعالى : « وان كذبوك فقل لي عملي ولكم عملكم أنتم بريئون مما اعمل وانا بريء مما تعملون ــ ٤١ يونس » .

اخبار القرآن بالمغيبات :

من اعجاز القرآن اخباره بالمغيبات ، وتحققت كما اخبر .

« منها » قوله تعالى : « لتدخلن المسجد الحرام انشاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون ــ ٢٧ الفتح » . فدخلوا آمنين وما كانوا يطمعون .

و « منها » : « هو الذي ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ــ ٣٣ التوبة » . وظهر .

و « منها » « وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ــ ٢٠ الفتح » . واخذوها .

و « منها » « واذ يعدكم الله احدى الطائفتين انها لكم ــ ٧ الانفال » . وصارت لهم .

و « منها » : « قل للذين كفروا ستغلبون ــ ١٢ آل عمران » وغلبوا .

و « منها » : « غلبت الروم في ادنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ــ اول الروم » . وغلبوا اعداءهم الفرس في بضع سنين .

و « منها » : « ام يقولون نحن جميع منتصر سيهزم الجمع ويولون الدبر ــ ٤٥ القمر » . وهزموا وولوا الدبر .

و « منها » : « ان كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ــ الى قوله ــ فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ــ ٢٣ البقرة » . وما فعلوا ولا طمعوا في ان يفعلوا .

و « منها » : آيات كثيرة كشفت اسرار المنافقين ، وما كانوا يقولون ويبيتون من الكيد والمكر ، كقوله تعالى : « يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر ــ ٧٤ التوبة » ... « سيحلفون بالله لكم اذا انقلبتم

اليهم ـ ٩٠ التوبة » الى كثير من الآيات التي لا ينطق بها حقا وصدقا الا علام الغيوب .

وبعد ، فان ما اشرنا اليه من اعجاز القرآن هو غيض من فيض .. وما كل الذين آمنوا بمحمد (ص) آمنوا به من اجل المعجزات .. كلا ، بل هم على انواع والتفصيل فيما يلي :

١ ـ الثقة بالصدق واهله :

آمن كثير من الناس بمحمد (ص) في عهده لمجرد الثقة به وبصدقه وامانته ، فلقد اشتهر بين قومه بلقب الصادق الامين وتميز عنهم منذ نشأته بالبعد عن كل قبيح كانوا يزاولونه ، وقد اجمع اهل السير والتاريخ ، ومنهم المنصفون من قادة الفكر في الشرق والغرب ، ومن كل دين،اجمعوا على ان محمدا كان قبل البعثة تماما كما كان بعدها المثل الأعلى لكل فضيلة ، وان عددا غير قليل تأثر بشخصيته وعظمته .

وضربنا مثلا لهؤلاء بقصة ايمان ضمام بن ثعلبة في فقرة « هل لمحمد معجزة غير القرآن ؟ » .

وفي كتاب لماذا اخترنا الدين الاسلامي : ان المؤرخ والكاتب الشهير « ولز » الذي ذاعت مؤلفاته الكثيرة وترجمت الى العديد من اللغات ـ قال : « من الذي يشك ان القوة الخارقة للعادة التي استطاع بها محمد ان يقهر خصومه هي من عند الله ؟ . وقد اجمعوا على ان من انصع الأدلة على صدقه ان المطلعين على جميع اسراره اول من آمن به ، ولو ارتابوا في صدقه لما آمنوا » .

٢ ـ البشارة بمحمد :

ما من نبي من الانبياء ـ حتى نوح وابراهيم ـ الا واخذ الله عليه

عهدا وميثاقا ان يبشر بمحمد (ص) وينوه باسمه ، كما تشير الآية ٨١ من آل عمران : « واذ اخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به » . وقال الامام علي (ع) : ما بعث الله نبيا الا اخذ عليه العهد في محمد (ص) وامره ان يأخذ العهد على قومه فيه بان يؤمنوا به ، ويناصروه اذا ادركوا زمانه .

واشارت بعض الكتب الموغلة جدا في القدم الى محمد ورسالته ، وفوق ذلك ذكرت اسم ابي لهب بالحرف ونصبه العداء لرسول الله (ص) فقد نقل العقاد في كتاب العبقريات الاسلامية تحت عنوان الطوالع والنبوات — عن عبد الحق في كتاب محمد في الاسفار الدينية العالمية المطبوع بالانكليزية ، نقل عنه ما يلي :

« ان اسم الرسول العربي مكتوب بلفظه العربي احمد في « السامافيدا » من كتب البراهمة ، وقد ورد في الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثاني ما نصه بالحرف : ان احمد تلقى الشريعة من ربه، وهي مملوءة بالحكمة .. وان وصف الكعبة ثابت في كتاب « الآثار فافيدا » وانه قد جاء في كتاب « زندافستا » الذي اشتهر باسم الكتاب المقدس في المجوسية جاء فيه الاخبار عن نبي يوصف بانه رحمة للعالمين يدعو الى إله واحد لم يكن له كفوا احد ، ويتصدى له عدو يسمى ابو لهب » .

وفي القرآن الكريم اكثر من آية تصرح بوضوح ان البشارة بمحمد (ص) جاءت في التوراة والانجيل ، وان بعض علماء النصارى واليهود على يقين من ذلك ، وانهم كتموا الحق حرصا على مكانتهم ، وخوفا على جاههم قال تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه — اي محمدا — كما يعرفون ابناءهم وان فريقا منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون — ١٤٦ البقرة » .

اجل كان هذا العلم موجودا ايام نزول القرآن عند بعض احبار اليهود ورؤساء الكنائس ، والا ما اعلن القرآن ذلك على سمع منهم ، وما سجل التاريخ عن راو واحد انهم نفوا وكذبوا ، وكانوا يبحثون عن كل صغيرة وكبيرة يدينون بها الرسول والقرآن .

اما الفريق الآخر من اهل الكتاب فقد اعلن هذا العلم ودان به، قال اهل التفسير : « ان عبدالله بن سلام كان من احبار اليهود وكبار علمائهم، وقد اسلم هو وجماعته على يد رسول الله (ص) وقال فيما قال : انا اعلم بنبوة محمد مني بابني لاني لا اشك في ان محمدا نبي ، اما ولدي فلعل امه قد خانت .. وكان اسمه الحصين ، فسماه الرسول عبدالله ، وفيه نزلت هذه الآية : « وشهد شاهد من بني اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ــ ١٠ الاحقاف » . وايضا الآية ٤٣ الرعد : « قل كفى بالله شهيدا بيني وبينكم ومن عنده علم الكتاب » .

وكان عدي بن حاتم الطائي نصرانيا ، ومن اشد الناس عداوة لرسول الله ثم اسلم على يده طوعا وايمانا بالحق . ومن الآيات التي اشارت الى الذين آمنوا من اهل الكتاب الآية ١٥٧ من الاعراف : «الذين يتبعون الرسول الامي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والانجيل » . اي التوراة الحق التي انزلها الله على موسى ، والانجيل الصدق الذي انزله على عيسى ، اما توراة الناس وانجيلهم فمحرفان مزوران . وعلى رغم التزوير والتحريف فان في التوراة فقرات تنطبق على محمد والتبشير به ، قال : « ول » في قصة الحضارة تعريب محمد بدران ج ٢ من المجلد الرابع ص ٢١ ما نصه بالحرف : « ويمكن ان تنطبق على محمد بعض فقرات تبشر به » . وهذا القائل مسيحي امريكي واكبر مؤرخ في هذا العصر .

اهل الكتاب يعترفون بتحريف كتابهم :

وتسال : لماذا تجيزون للمسلم ان ينسب التحريف والتزوير الى التوراة والانجيل ، وتحجرون على غير المسلم ان ينسب ذلك الى القرآن •

الجواب : نحن مع الدليل اينما كان بصرف النظر عن دين الآباء والاجداد ، واذا درسنا كل واحد من الكتب الثلاثة في ضوء ما احيط به من ظروف وعوامل ، او على اساس شكله ومحتواه ــ تبين معنا الفرق والسبب المانع من قياس الكتابين على القرآن •• من حيث الشكل والمضمون ، ومن حيث العوامل الخارجية •• فان معاني القرآن واسلوبه والعوامل التي احاطت به كلها ، تشهد وتعترف بانه من عند الله ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، اما اسلوب التوراة والانجيل ، وما فيهما من محتويات ومضامين ، واحيط بهما من ظروف وملابسات ــ فانها تبعث على الاعتقاد بان الله وموسى والسيد المسيح بريئون من هذه التوراة والاناجيل ، وممن كتبها وآمن بها •• وفيما يلي البيان بما امكن من السرعة والايجاز •

اما الفرق من حيث الظروف والعوامل الخارجية فقد روى الرواة والمؤرخون من كل دين ، وفي كل عصر على انه قد كان للنبي (ص) كتبة للوحي معروفون ، ومنهم باتفاق الجميع ــ كما في اعجاز القرآن للرافعي ــ الامام علي بن ابي طالب (ع) وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وابي ابن كعب ، وعبدالله بن مسعود ، فاذا نزلت الآية سجلوها على ورق او جلد او عظم ونحوه ، حتى كتبت آي الذكر الحكيم كلها في عهد الرسول (ص) وبأمره ، ولكنها لم تجمع في مصحف واحد في حياته (ص) لانه كان يتوقع ان ينزل عليه جديد من الوحي ، وايضا كان عدد غيرقليل من الصحابة يحفظون القرآن في عهد الرسول (ص) ، منهم ــ كما في

اول تفسير القرطبي ــ الخلفاء الاربعة ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ بن جبل ، وعبادة بن الصامت ، وسالم بن ابي حذيفة وعبدالله بن عمرو بن العاص .

ولما انتقل النبي (ص) الى الرفيق الاعلى ، وانقضى عهد الـوحي جمع المسلمون القرآن في كتاب واحد في عهد ابي بكر وبمدينة الرسول ، وبعده بلا فاصل ، ونصوص النسخ كلها واحدة حروفا وكلمات وترتيبا وسياقا ..

اجل ، حصل بعض الاختلاف في قراءة آيات منه ، وهذا امر طبيعي لخلوه آنذاك من النقط والشكل ، فحاول عثمان ايام خلافته ان يجمع الناس على قراءة واحدة ، واذن فالقرآن ثابت بالنقل المتوافر المتواتر عن محمد بالذات باعتراف الجاحدين لنبوته .

قال هيكل في كتاب حياة محمد (ص) ص ٣١ الطبعة التاسعة : « الذين يزعمون تحريف القرآن من المستشرقين هم قلة بين اشدالمستشرقين تعصبا اما كثرتهم فيقرون بان القرآن الذي تتلوه اليوم هو بعينه القرآن الذي تلاه محمد (ص) على المسلمين اثناء حياتـه لم يحرف ولم يبـدل ــ الى ان قال ــ وقد اورد المستشرقون كثيرا من التحريف ، ونختار من هذا الكثير الذي قاله المستشرقون ، بعض ما كتبه السير « وليـم موير » في كتـابه حيـاة محمـد (ص) لـيرى الذين اسرفوا على انفسهم وعلى التاريخ شدة ما اسرفوا حتى اطمأنوا الى تحريف القرآن و « مـوير » مسيحي شديد الحرص على مسيحيته والدعوة اليها ، شديد الحرص على ان لا يدع موضعا لنقد نبي الاسلام وكتابه دون ان يقف عنـده ومحاولة دعمه » . أي دعم النقد للنبي والقرآن .

ثم نقل هيكل عن « موير » المتعصب صفحـات عديدة تشهـد ان القرآن لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ومن هذه الصفحات ما نصه بالحرف : « ان كل ما في القرآن صورة صادقـة كاملة لما اوحي به

الى محمد (ص) •• ونستطيع ان نؤكد استنادا الى اقوى الادلة ان كل آية من القرآن دقيقة في ضبطها تماما كما تلاها محمد » •

هذه شهادة واضحة نطق بها كبير يدين بالمسيحية ، ويتعصب لها ، ولكنه درس وحقق ظروف القرآن وكل ما احاط به من ملابسات ، ثم اعلن نتيجة دراسته وتحقيقه ، وهي ان القرآن الذي اوحي به الى الرسول الله (ص) هو هذا الذي عند المسلمين لا زيادة فيه ولا نقصان •

وبعد اعتراف جماعة من كبار اليهود والنصارى بان القرآن اخذ من رسول الله (ص) شكك المحققون منهم وارتابوا في نسبة التوراة الى موسى ، ونسبة الاناجيل الى عيسى •• ذلك بان التوراة التي نزلت على موسى (ع) قد فقدت من بعده باعتراف اليهود والنصارى انفسهم ، وانه بعد سنين طوال ادعى من ادعى بانه يحفظها عن ظهر قلب ، وكتب دعواه هذه ، وقال لها : كوني توراة فكانت •

ونفس الشيء حدث للانجيل الاصيل الذي انزل على عيسى (ع) ، قال صاحب اظهار الحق ص ٤٢ : ان قسيسا اعترف بضياع الانجيل بسبب المصائب والفتن التي وقعت على المسيحيين مدة ٣١٣ سنة فالتجأوا في اثباته الى الظن والتخمين ••

ومن الطريف ان انجيل السيد المسيح قد اولد بعده اكثر من ١٧٠ انجيلا ، انظر اظهار الحق ص ١٤ • وفي سنة ٣٢٥م اجتمع رؤساءالنصارى واقروا اربعة منها •

وآخر ما قرأته في هذا الموضوع كتابين حديثين : الاول كتاب القاموس المقدس اشترك في وضعه ٢٧ عالما ورئيسا دينيا من المسيحيين وجاء في مادة يوشا من هذا الكتاب ما نصه بالحرف : « مما لا شك فيه

ان معظم الاسفار المقدسة اتلــف او فقــد في عصر الارتداد عــن الدين والاضطهاد » وجاء في مادة اسفار : « هناك رأي ـــ اي لاهل الكتاب ـــ يقول : ان الذي اضفى صفة القانون على اسفار العهد القديم هم كتــاب الاسفار انفسهم » وهذا اعتراف صريح لا يقبل الشك بان الاسفار لا عين لها ولا اثر ، وان هذه الاسفار المتداولة من عند كتبتها •

والكتاب الثاني قصة الحضارة لمؤلفه : « ول ديورانت » فقد جاء في الجزء الثاني من المجلد الاول ترجمة محمد بدران ص ٣٦٧ ـــ ما نصه بالحرف : « كيف كتبت هذه الاسفار ؟ ومتى كتبت ؟ واين كتبت ؟ ذلك سؤال بريء لا ضير منه ، ولكنــه سؤال كتب فيه خمسون الف مجلد » وهذا ـــ السؤال البريء من عالم ومؤرخ مسيحي اوضح دليل على شكه في مقدسات آبائه واجداده •• ولو كانت تلك الاسفار حقا وصدقا لكان جواب السؤال عنها بسطر او سطرين ، تماما كجواب السؤال عن القرآن الكريم••• ومهما يكن فان الخمسين الف مجلد التي الفت في الجواب قد اكدت شبهة التحريف ، وحولتها الى القطع واليقين بالتزوير والتحريف •

هذا مجمل الفرق والتضاد بين ظروف القرآن التي تشهد بصدقه ، وظروف التوراة والانجيل التي تنطق بالتحريف والتزوير فيهما •

اما الفرق من حيث الشكل والاسلوب فلسنا بحاجة الى الكــلام عنه •• وحبذا لو سجلت الفاظ التوراة والانجيل كما سجلت المفردات في قواميس اللغة •• واما من حيث المحتــوى والمضمون فهذا نموذج مــن محتويات التوراة والانجيل : زنى لوط بابنته ، وزنى داود بزوجة احــد اتباعه وقتله ، وعبد هارون العجل مع من عبــد ، وشرب عيسى الخمر ، وقال فيه قول العاشق الولهان ، وسقاه في الاعراس للشبان ، وتجلى الله في صورة انسان ، وحملته مريم في بطنها ، واولدته كما تلــد النساء •• وشكى من ظلم عبيده الذين شتموه وضربوه ، ثم صلبوه ودفنوه فــي

التراب . الى غير ذلك من الاساطير والخرافات .. واطرف من كل طريف ان سفر التثنية من التوراة التي نزلت على موسى بالذات ـ قالت ما نصه بالحرف : « فمات موسى ، ولم يعرف انسان قبره الى اليوم.. » هل نزل هذا الخبر على موسى قبل موته او بعده ؟ ومن بلغه الى الكاتب الـذي خط التوراة بيمينه .

وايضا حدثتنا الاناجيل عن صلب السيد المسيح ودفنه ، ثـم عـن خروجه من القبر وصعوده الى السماء واختتام حياتـه على الارض ... فهل حديث الصلب والدفن الموجود في الاناجيل ، هل هذا الحديث وحي من الله ، او هو خبر من بعض الناس ، فان كان وحيا من الله فعلى مـن انزله بعد المسيح ؟ وان كان من بعض الناس فكيف دون في الاناجيـل ، ونسب الى الله ؟.

وبعد ، فان علماء الاسلام قد وضعوا العديد من الكتب في تحريف التوراة والانجيل ، منها كتاب الرحلة المدرسية ، وكتاب الهدى الى دين المصطفى للشيخ جواد البلاغي ، وكتاب محمد رسول اللـه في بشارات الانبياء لمحمد عبـد الغفار ، وكتاب محمد رسول اللـه هكذا « بشرت الاناجيل » لبشرى زخاري مخائيل ، وكتاب البشارات والمقارنات للشيخ محمد الصادقي .

كتاب اظهار الحق :

ومن اراد ان يقنع اي انسان بتحريف التوراة والانجيل ، او يفحمه بمعادلة شبه حسابية لا تقبل الشك ـ فليقرأ كتاب اظهار الحق لرحمـة الله الهندي ، فانه يتيم وعظيم في هذا الموضوع ، يحتوي على مئة دليـل حسي على التحريف والتزييف ... ولصاحبه عقل اشبه بالعقل الالكتروني في حفظ الارقام والاحاطة بها وحفظها : فهو يعرف كل ما في اسفار التوراة

والاناجيل ومتى فقد كتاب موسى ، وكتاب عيسى ؟ وكيف اختفيا من كل مكان ؟ وايضا يعرف اول من كتب هذه التوراة المتداولة في ايدي الناس ، ونسبها كذبا وافتراء الى كليم الله ، واول من كتب هذه الاناجيل، ونسبها الى روح الله ، ومتى كان ذلك ؟ وكيف قلمت بالنقصان، وطعمت بالزيادة مع مرور الزمن ، ثم يقارن بين النسخ اللاحقة والسابقة ، ويبين وجه التهافت والتناقض بينهما بل يعرف زمان الطبع ومكانه ، وعدداللغات التي ترجم اليها كل من الانجيل والتوراة .

وفوق ذلك احاط علما بالكتب المؤلفة في تفسير الكتابين ، ونقل عن اقطاب المفسرين : الاعتراف الصريح بتحريف الكثير من آيات التوراة والانجيل ، وهو يذكر اسم المفسرين ورقم الآية المحرفة ورقم الصفحة من التفسير وسنة الطبع .. الى غير ذلك من التدقيق والتثبت .

ويقع هذا الكتاب المفعم المتخم بالعلم والارقام ، في جزأين، ويقول المؤلف في المقدمة : ان الانكليز بعد ان استعمروا الهند حشدوا رجال الكنيسة للرد على الأسلام واهله ، فوضعوا لهذه الغاية الكتب والرسائل، ونشروها في كل قطر .. ثم دعاه رئيس الكنائس في الهند للمناظرة علنا ، فاستجاب الشيخ رحمة الله ، وانعقد مجلس المناظرة في بلدة « اكبر آباد » بمحفل عام في شهر رجب سنة ١٢٧٠ هـ ، وتقرر ان تكون المناظرة في خمسة موضوعات : هي تحريف التوراة والانجيل ، ونسخ الشرائع ، وعقيدة التثليث ، وحقيقة القرآن ونبوة محمد (ص) ولما ظهرت الغلبة للمؤلف في مسألة التحريف والنسخ احجم رئيس الكنائس عن المناظرة ، وسد بابها ، وولى هاربا .

ثم الف رحمة الله في الموضوعات الخمسة كتاب اظهار الحق ، وقال في آخره : ابتدأت به في ١٦ رجب سنة ١٢٨٠ هـ ، وانتهيت منه في آخر

ذي الحجة من السنة نفسها .. وقد طبع الكتاب سنة ١٣٠٥ هـ ، وهو نادر الوجود الا في بعض المكاتب القديمة ، واتمنى لو طبع ثانية طبعة حديثة على ان يجعل للموضوعات عناوين بارزة ، ولكل مسألة فقرة خاصة مع جملة في رأس السطر بالحرف الاسود تشير اليها ، وايضا مع الفواصل ، ورؤس الاسطر .

٣ ـ الفتح :

اشرنا فيما سبق الى ان الذين آمنوا برسول الله على انواع،وذكرنا منهم نوعين : نوع آمن به لمجرد الثقة بصدقه ، وآخر لورود البشارة به في التوراة والانجيل ، واضطرنا حديث البشارة الى الكلام عن التحريف واوجزنا بقدر الامكان ، ونعود الآن الى الموضوع ، ونذكر في هذه الفقرة النوع الثالث وهو ان الله سبحانه بعد ان فتح على نبيه الكريم ، ونصره على عتاة اليهود والمشركين ، وامتلأت قلوبهم منه رعبا ـ دخل الناس في دين الله قبائل وافرادا كما جاء في سورة النصر ، لان كثيرا منهم كانوا ينتظرون في اسلامهم فتح مكة ، ولما فتحها الله على نبيه عظم امر الاسلام ، وانتشر في الجزيرة العربية كلها .

٤ ـ ايمان العقل والوعي :

ابتدأ محمد (ص) دعوته بقوله ايها الناس قولوا : لا إله الا الله تفلحوا .. هو الذي خلقكم من نفس واحدة .. ان اكرمكم عند الله اتقاكم .. ان الله بالناس لرءوف رحيم .. ولكنه لا يحب الظالمين والمفسدين .. ويحب المتقين والمحسنين .

هذه امثلة مما قاله محمد (ص) للناس عن ربه وربهم .. وقال لهم عن نفسه : انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم واحد فاستقيموا اليه واستغفروه وويل للمشركين .. فمن يرجو لقاء ربه فليعمل عملا

صالحا ولا يشرك بعبادة ربه احدا •• ما كان لبشر ان يؤتيه الله الكتاب والحكمة والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لي من دون الله •

هذا هو اصل الدعوة الالهية المحمدية : الايمان بالله وحده الذي يحب المتقين ، ويكره المعتدين ، والايمان برسوله ، وهو واحد من الناس وبشر مثلهم كما نطقت الآية ١٢٨ من التوبة : « لقد جاءكم رسول من انفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم » • هذا هو اصل الدعوة المحمدية ، وعليه تتفرع جميع مبادىء الاسلام واحكامه •• واذا لم يأت الانبياء بهذا الدين فبأي شيء يأتون • وهل ابسط واوضح ، وانقى واصفى من هذا •

وجاء في كتاب « لماذا اخترنا الدين الاسلامي » : ان « ليون روش » الفرنسي قال في كتابه « ثلاثون عاما في الاسلام » : وجدت الاسلام افضل دين عرفته •• انه انساني يجمع المحامد والفضائل ولو انه وجد رجالا يعلمونه الناس حق التعليم ، ويفسرونه تمام التفسير لكان المسلمون اليوم ارقى العالمين ، واسبقهم في كل الميادين ومعنى قوله هذا، ان الاسلام تركن اليه النفس ، ويقره العقل ، وان الناس يجهلون حقيقته واهدافه • حتى المسلمين •• وانه لو اتيح له من يبينه للناس على حقيقته ، ويبشر به كما بشر بالمسيحية لظهر على الدين كله ، وآمن به اكثر من في الارض،وعاشوا في أمن ورخاء •• ويؤيد هذا الفهم للاسلام قول الرسول الاعظم (ص) : « المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف » وليس من شك ان كل انسان يود ان يكون قويا ، لا ضعيفا ، لانه بالقوة يعمل ويبني ، وبها يحيا وينمو •

وآمن كثيرون بمحمد (ص) في عهده ، واخلصوا لدعوته ، آمنوا بها وبه عن عقل وعلم ، وقناعة ودراية ، لا للمحاكاة والتقليد ، ولا لمجرد

الثقة بصدقه وامانته ، او لجاهه وسلطانه .. ومن هؤلاء النجاشي ملك الحبشة ، ومعه كثيرون من الرهبان والقسيسين ، وغيرهم من المسيحيين، وحديثه مع جعفر بن ابي طالب مشهور ومدون في كتب السيرة والتاريخ.

اسلام علي واسلام ابي بكر :

واول من آمن برسالة محمد (ص) عن هدى وبصيرة هو علي بن ابي طالب (ع) . قال محمد حسين هيكل في كتابه حياة محمد في ص ١٤٠ الطبعة التاسعة ـ ما نصه بالحرف : « دعا محمد (ص) ابن عمه عليا الى عبادة الله وحده لا شريك له ، والى دينه الذي بعث به نبيه .. فاستمهل علي ابن عمه محمدا حتى يشاور اباه ، ثم قضى ليله مضطربا حتى اذا اصبح اعلن لرسول الله وخديجة انه يتبع دين محمد من غير حاجة الى رأي ابي طالب ، وقال علي : لقد خلقني الله من غير ان يشاور ابا طالب ، فما حاجتي انا الى مشاورته لاعبدالله .

وبعد ان نطق هيكل بهذه الحقيقة اخذه عرق من تربيته ، وانسجم مع بيئته ، وقال : « وكذلك كان علي اول صبي اسلم » .

ان عليا سبق ابا بكر الى الاسلام باتفاق الكل ، وسبقه ابو بكر الى الخلافة ، فقال من آمن بالله ورسوله : كيف تقدم ابو بكر على اول القوم اسلاما واقدمهم بالله ايمانا ، والله يقول : « والسابقون السابقون اولئك المقربون ١١ ـ الواقعة » ؟ وحار في الجواب من تنكر للحق واهله .. واخيرا اسعفته القريحة على اللف والدوران ، فتلاعب بالالفاظ ، وقال : « اول من اسلم من النساء خديجة ، ومن الصبيان علي ، ومن الرجال ابو بكر » .

اجل ، ان ابا بكر كان رجلا حين اسلم ، ما في ذلك ريب ، وايضا

كان رجلا كبيرا ، وهو يعبد الاصنام .. ولكنه لم يكن ذا عقل نير ينهاه ويردعه عن عبادة الاحجار كعقل ورقة بن نوفل ، وعثمان بن الحويرث ، وزيد بن عمرو ، وغيرهم من الحنفاء الذين تسردوا على عصرهم الجاهلي، وادركوا بفطرتهم الصافية ان عبادة الاصنام جهالة وضلالة ... ان اسلام ابي بكر لم يكن عن عقل ووعي ، بل لمجرد صداقته مع رسول الله، وثقته بصدقه ، كما قال هيكل في نفس الصفحة من الكتاب السالف الذكر ، وهذي هي عبارته بالحرف : « وكان ابو بكر بن ابي قحافة التيمي صديقا حميما لمحمد يستريح اليه ، ويعرف فيه النزاهة والصدق .. ولم يتردد ابو بكر في اجابة محمد » .

اما ايمان علي فهو ايمان العقل والعلم الذي اعلنه بقوله : « لقد خلقني الله من غير ان يشاور ابا طالب ، فما حاجتي انا الى مشاورته لأعبد الله ؟ » وليست هذه وحدها من هفوات هيكل، فقد ذكر في الطبعة الاولى حديث « ان النبي (ص) عندما نزلت هذه الآية « وانذر عشيرتك الاقربين » جمع بني عبد المطلب ، وقال لهم : قد امرني الله ان ادعوكم اليه ، فايكم يؤازرني على هذا الامر على ان يكون اخي ووصيي وخليفتي فيكم ، فاسمعوا له واطيعوا » ذكر هيكل هذا في الطبعة الاولى . ثم حذفه في الثانية، لانه قبض خمس مائة جنيه ثمنا لهذا التحريف.. والعهدة على ذمة ناقل الرشوة .

الاسلام والقائلون بالحق :

اسلم الذين يستمعون القول فيتبعون احسنه ، وآمنوا بدعوة محمد (ص) في عهده ، وفي كل زمان ومكان ، وتنبأ كثيرون من قادة الفكر في هذا العصر بان الاسلام هو دين المستقبل مهما طال الامد ، وعللوا ذلك بان العالم يتجه الى العلم واستغلاله لخير الانسان وصالحه ، والاسلام هو الدين الذي يوجه العلم لهذه الغاية .

قال تولستوي الفيلسوف الروسي الشهير : « ان الشريعة الاسلامية ستعم البسيطة كلها ، لانها تأتلف مع العقل والحكمة والعدل » .

وقال الكاتب الفرنسي « هنري » في كتاب الاسلام : ان السبب الوحيد لانتشار الاسلام بسرعة تشبه خرق العادة هو بساطة هذا الدين، وسهولة تعاليمه ، وخلوه من الخرافات ، ومن كل ما يصعب على العقل قبوله .

وقال الفيلسوف الشهير واديب القرن العشرين برنادشو الانكليزي: « ان الاسلام دين المستقبل ، ولا بد ان تعتنق الامبراطورية الانكليزية النظم الاسلامية .. ولو بعث محمد في هذا العصر لحل المشكلات العالمية ، وقاد العالم الى السعادة والسلام ، فما احوج العالم الى رجل كمحمد » (كتاب لماذا اخترنا الدين الاسلامي) .

وهذا العظيم يمثل اسمى ما وصلت اليه الثقافة في هذا العصر، وقد نطق بهذه الحقيقة ، وهو يعنيها ويؤكدها ، لانها نتيجة حتمية لدراسة طويلة وعميقة ، وثمرة يانعة لتفكير صاف وسليم .. لقد تطلع هذا الفيلسوف الى الوقت الذي يصبح فيه كل الناس مسلمين، لانهم يتطلعون بفطرتهم الى الامن والرخاء ، والعدل والمساواة ، ولا تتحقق هذه الامنية للناس كافة الا اذا آمنوا بالعدالة والاخوة الانسانية ، ودخلوا في السلم كافة على هذا الاساس وهذي هي دعوة محمد ولاجلها بعث .

لقد ادرك برنادشو الكثير من خصائص محمد (ص) التي استحق بها ان يختاره الله لرسالته ، وايضا ادرك ان العصر الذي نعيش فيه تماما كعصر الجاهلية الجهلاء فسادا وتناحرا ، وان اختلف الشكل والمظهر ، وانقذ محمد الناس من جاهليتهم الاولى ، فينقذهم من توافرت فيه

خصائصه من الثانية •• واذا لم يكن محمد (ص) في هذا العصر بشخصه فانه موجود بسنته وشريعته ، وقد آمن بها كثير من العلماء وقادة الفكر المنصفون بعد الدراسة والتمحيص، وفيما يلي نذكر امثلة من هؤلاء الذين يعدون بالعشرات •

من الذين آمنوا :

اكتب هذه الفقرة ، ولدي من مصادرها كتاب التكامل لاحمد امين العراقي ، وكتاب ما يقال عن الاسلام للعقاد ، وثالث كتاب محمد والقرآن لكاظم آل نوح ، ورابع كتاب لماذا اخترنا الدين الاسلامي للرضوي ، وفي هذه الكتب الاربعة عدد غير قليل من الذين آمنوا بان رسالة محمد (ص) إلهية ، لا بشرية ، وكلهم من اهل المعرفة وحملة الشهادات العالية ، وفيهم الانكليزي والفرنسي والالماني والامريكي والدنمركي والايطالي والهولندي والبلغاري •

قال اللورد « هيدلي » البريطاني : اعتنقت الاسلام نتيجة لبحث سنوات عديدة •• ان الاوربيين ينظرون الى الاسلام كأنه وحشيةوهمجية مع ان كل اعمال محمد كانت لازالة التوحش والهمجية ، ولكن المبشرين المسيحيين لا يدخرون وسعا لتحريف الاسلام ، وهذا هو الكذب الذي يخزيهم •

وقال الدكتور « بنوه » الفرنسي : تصفحت القرآن لانتقده ، فاذا بي اؤمن به واقدسه •

وقال « دولاند » الامريكي : اسلمت بعد ان قرأت القرآن وشيئا من سيرة محمد (ص) فرأيت ان الجانب الانساني يتجلى في كل وصية من وصايا الاسلام •

وقال الدكتور « ماركوس » الالماني بعد ان اسلم : عقيدة التوحيد

قدسية ، وتعاليمها منزهة عن الخرافات ، وتهدف الى تأسيس حرية جماعية عامة . (انظر صورة هؤلاء الاقطاب الاربعة في كتاب لماذا اخترنا الدين الاسلامي للسيد الرضوي) .

وجاء في كتاب « ما يقال عن الاسلام » للعقاد بعنوان الاسلام والنظم الاجتماعية : نحمد صنيع الكاتب الفاضل الاستاذ : « ليوجولد فايس » النمساوي .. لقد دان بالاسلام منذ خمس وثلاثين سنة ، وتسمى باسم « محمد أسد » ، ودافع عن الاسلام ، ودأب منذ اسلامه على تصحيح اخطاء الاوربيين .. والف في الموضوعات الاسلامية كتاب الاسلام على مفترق الطرق ، وكتاب اصول الفقه الاسلامي ، وكتاب الطريق الى مكة ، وكتاب مبادىء الدولة والحكومة في الاسلام .

وبهذه المناسبة نشير الى ان الكتب التي الفها غير المسلمين في عظمة الاسلام ــ كثيرة ، منها كتاب الاسلام والعصر الحديث للدكتورة الالمانية « الس ليختستادتر وكتاب الاسلام والجماعة المتحدة ، للاستاذ مونتجومري عميد قسم الدراسات العربية بجامعة ادنبرة (انظر ما يقال عن الاسلام للعقاد) وكتاب حياة محمد لوليم ميود ، ايضا كتاب حياة محمد لثبورت اسمت (أنظر كتاب لماذا اخترنا الدين الاسلامي ؟ للرضوي) . وكتاب اقوال محمد لتنلي لين بول ، وكتاب اشعة خاصة بنور الاسلام (انظر كتاب محمد والقرآن لكاظم آل نوح) .

محمد خاتم النبيين :

وتسأل : قال سبحانه في الآية ٤٠ من الاحزاب : « ما كان محمد ابا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » . وقد فهمنا ان محمدا نبي ولكن لماذا خاتم النبيين ؟.

الجواب : ان الغاية من بعثة الانبياء هي ان يبلغ النبي قول الله الى

عباده فيما يحتاجون اليه من امر دينهم ودنياهم ، واي مبدأ من المبادىء التي يحتاج اليها الانسان في هذا العصر وغيره ـــ غير موجود في كتاب الله وسنة نبيه ، وهل من شيء اصدق في الدلالة على ان الاسلام هو دين الحياة في شتى مراحلها من اسلام من اسلم عن بصيرة في هذا العصر ؟ .

قال سبحانه : « ما فرطنا في الكتاب من شيء ـــ ٣٨ الانعام » . وقال الرسول الاعظم (ص) : ما من شيء يقربكم الى الله الا وامرتكم به ، وما من شيء يبعدكم عن الله الا ونهيتكم عنه .

وقال ايضا : ان مثلي ومثل الانبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانا فاحسنه الا موضع لبنة ، فجعل الناس يطوفون به ، ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ؟. فانا اللبنة ، وانا خاتم النبيين .

وقلنا في ما ألفنا : ان محمدا ودين محمد قد استوفيا جميع صفات الكمال ، وبلغا الغاية منها والنهاية ، تماما كما بلغت الشمس الحد الاعلى من النور ، فلا كوكب ولا كهرباء يمتلىء الكون بنورهما بعد كوكب الشمس .. كذلك لا نبي يأتي بجديد لخير الانسانية بعد محمد .

العصمة نوعان :

معنى العصمة : التنزيه عن الخطأ والخطيئة وهي نوعان : الاول العصمة في تبليغ الوحي عن الله سبحانه ، اي ان المعصوم لا يخطىء فيه لا جهلا ولا نسيانا ، ولا يتعمد الكذب اطلاقا ، وهذه العصمة تجب حتما لمن اصطفاه الله لابلاغ رسالته والا استحال ثبوت الوحي بحال من الاحوال حيث لا وسيلة لاثباته الا عصمة المبلغ .

ونسأل : هل هذا النوع من العصمة يكون بالقدرة والاختيار ، او بالجبر والقسر ؟

الجواب :

اما نحن فلا نرى مانعا من العقل ان تكون العصمة في التبليغ بالقسر لا بالاختيار ، ودليلنا على ذلك :

اولا : انها في تبليغ الاحكام عن الله ، لا في امتثالها .

ثانيا : ان النبي في هذه الحال هو لسان الله وبيانه . ولسانه تعالى يستحيل عليه الخطأ .

ثالثا : ان ظاهر القرآن يدل على ذلك ، قال تعالى في سورة الاعلى مخاطبا نبيه الكريم : « سنقرئك فلا تنسى » و «لا» هنا للنفي والاخبار ، لا للنهي والانشاء ، لان المعنى نحن نقرئك القرآن يا محمد ، ونحفظه في قلبك وعلى لسانك بكامله بحيث لا تنسى منه حرفا واحدا ، والى هذا يومىء قوله تعالى : « ان علينا جمعه وقرآنه ـ ١٧ القيامة » وقوله : « نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ـ ٩ الحجر » .

النوع الثاني : العصمة في امتثال الاحكام بحيث يفعل المعصوم الواجب مع قدرته على تركه ، ولا يفعل المحرم مع قدرته على فعله ... ابدا لا يفعل هذا ، ولا يترك ذلك ، لا عمدا ولا جهلا ولا سهوا . وهذه العصمة ممكنة ، بل هي ثابتة لاهلها ، ما في ذلك ريب .

اين هو المعصوم :

وتسأل : قد يوجد انسان يعرف حدود الله وحلاله وحرامه، ويلزم بها نفسه ، ولا يتعمد المعصية في قول او فعل ، ولا يقصر في فريضة بل ولا في سنة .. ولكن هل يوجد انسان واحد يستحيل في حقه الخطأ بما هو انسان بحيث لا يخفى عليه مكر ولا خديعة ، ولا يجوز عليه سهو ولا نسيان .. كيف وهو ابن الارض والطبيعة .. حتى سيد الانبياء (ص)

قال : « انما انا بشر مثلكم يوحى الي ـــ ٦ فصلت » ونحن نؤمن بعصمته في التبليغ ، اما في غيره فهو كما وصف نفسه ، وان قال قائل : ان العصمة بالطبيعة او بالقسر قلنا له : اذن لا فضل بها ولا اجر عليها .

الجواب :

ان الانسان بما هو انسان ليس بمعصوم ، وايضا لا تأتيه العصمة بالكسب والعمل ، كما هي شأن العدالة ، ومن هنا اسقط سبحانه التكليف عن الجاهل والناسي مع التحفظ وعدم التقصير .. وايضا لا تكون العصمة في امتثال الحلال والحزام بالجبر والالجاء ، حيث لا طاعة ولا امتثال الا مع القدرة والارادة ، ولكن ليس معنى هذا انه لا وسيلة عند الله سبحانه الى العصمة في الامتثال الا الجبر والاكراه .. كلا هناك طريق آخر اليها عنده تعالى ، وقد اشار اليه بقوله : «وان الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ـــ ٢٩ الحديد » . واليك البيان :

وبقصد التوضيح نمهد بهذا المثال : لك صديق وحبيب تحرص كثيرا على مصلحته حتى كأن شيئا لو اصابه قد اصابك بالذات .. ورأيته يهم بامر ظنه خيرا له وصلاحا ، وانت تعلم علم اليقين انه شر وفساد، وهو يثق بعلمك و نصحك ، فتطلعه على الحقيقة ، وهو بدوره يحجم ويمتنع بارادته واختياره بمجرد الاشارة منك ، فيكون لك ، وهذي هي الحال ، فضيلة الاخلاص والنصيحة وله ايضا فضيلة الاستماع اليها ، والعمل بها.

والله سبحانه امر عباده ونهاهم ، ووعد الطائع منهم بالثواب ، وتوعد العاصي بالعقاب ، ثم ترك كل امرىء وما يختاره لنفسه ، ولا يتدخل في شؤونه عند الطاعة او المعصية ، ولكنه يعذر المخطىء اذا هو احتاط ولم يقصر .. هذا شأنه ، جلت حكمته ، مع جميع عباده الا مع المعصوم فانه يشمله بعنايته ويمده بارادة التسديد لا التكوين ، فاذا اوشك ان ينسى او ينخدع نبهه سبحانه بطريق او بآخر ، وكشف له عن الواقع ، فينتبه المعصوم ويمتنع مختارا لا ملجأ .

وقد حدث هذا مع الانبياء اكثر من مرة ، من ذلك ما جاء في السبب الموجب لنزول هذه الآية : « ومن يرتكب اثما ويرم به بريئا فقد احتمل بهتانا واثما مبينا ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم ان يضلوك وما يضلون الا انفسهم ـ ١١٢ النساء » قال المفسرون : ان رجلا من المسلمين سرق متاعا ، ورمى به بريئا ، فناصرت السارق طائفة من الصحابة ، وحاولوا جاهدين ان يخدعوا رسول الله (ص) في براءة السارق ، وكاد الرسول ان ينخدع ويثق بما اظهروه من الصلاح ، وبما اقسموا من الايمان فاطلعه الله على كذبهم ومكرهم . فعامل الرسول الاعظم (ص) كلا بما يستحق .

وهكذا سبحانه يسدد المعصوم ، ويمده بارادة لا هي بالتكوين فينتفي الفضل والاجر ، ولا بالتشريع فيستوي المعصوم وغير المعصوم ، بل بين بين ... ونحن على هذا الفهم والرأي حتى يثبت العكس ، وبهذه الارادة اي ارادة التسديد لا التكوين او التشريع ـ نفسر ارادته تعالى في آية التطهير : «انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ويطهركم تطهيرا ٣٣ ـ الاحزاب » .

لقد اراد سبحانه للنبي وآله التطهير والتنزيه عن الخطأ والخطيئة ، اراد ذلك بالنص الصريح في هذه الآية التي لا تقبل التأويل بوجه .. ولكن من اي نوع هي الارادة الالهية ؟ هل هي من نوع التشريع ، واذن فلا مبرر للتخصيص باهل البيت (ع) ، او من التكوين ، واذن فلا فضيلة لهم ما داموا غير المختارين. ولا تتصور نوعا ثالثا لارادته تعالى الا ارادة التسديد والتأديب ، واليها اشار النبي (ص) بقوله : « ادبني ربي فاحسن تاديبي » ولنا ان تفسر هذا التأديب الرباني بقول امير المؤمنين (ع) : « لقد قرن الله نبيه محمدا (ص) من لدن ان كان فطيما اعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ، ومحاسن اخلاق العالم ليله ونهاره . ولقد كنت اتبعه

اتباع الفصيل اثرامــه ، يرفع لي في كل يوم مــن اخلاقه علما ويأمرني بالاقتداء به » •

وبعد ، فهل من دليل على الارادة الثالثة اصرح واقوى من هــذا الدليل •

الشيعة والعصمة :

والشيعة اول من ادرك ان العصمة يحتمها وجوب العمل بالوحي ، وقرروها باساليب شتى • واستدلوا عليها بمنطق العقل وبداهته • وعنهم اخذ السنة فكرة العصمة كما قــال الدكتور احمد شلبي ــ من السنة ــ استاذ التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية بجامعة القاهرة ، فقد جــاء في الجزء الثالث من كتابه مقارنة الاديان طبعة ١٩٦٧ ــ ما نصه بالحرف « الشيعة يثبتون عصمة الانبياء والائمة ايضا ، ويرون ان الرسول لو لم يكن معصوما من الزلل لقلت الثقة به ، ولانتفت فائدة البعثة •• والعجب ان قول الشيعــة بعصمة الانبيــاء تسرب الى اهل السنة ، واصبح رأي جمهور المسلمين » •

ومع هذا يقول صاحب الخطوط العريضة بكل جهل وصلافة : ان الشيعة ينفون العصمة عن الانبياء وبنــاء على افترائه هذا حمــل عليهم باضاليله واباطيله ، وتجاهل قول الشيخ محمد عبده في رسالة التوحيد : « من العسير اقامة الدليل العقلي ، او اصابة دليل شرعي يقطع بمــا ذهب اليه الجمهور » اي من وجوب العصمة للانبياء •

وبعد : فان النبي بشر بطبعه وطابعه ، وقد غالى وتجاوز الحد مــن قال : « ان محمدا (ص) هو الحقيقة التي خلق الله منها الوجود ، والروح التي سرت في جميع الكائنات علويها وسفليها ، كلا ، لا فرق بين محمــد سيد الانبياء ، وغيره من البشر الا في الجهات التالية :

١ ـ انه قد ارتفع الى اعلى مراتب الانسانية كمالا ، بحيث لو تجاوزها قيد شعرة لكان إلها او نصف إله .

٢ ـ يوحى اليه .

٣ ـ ان الله قد لطف به كما لطف بجميع الانبياء ، فقربهم من كل فضيلة ، وابعدهم عن كل رذيلة ، لطف بهم ، لا في بيان الاحكام فقط ، بل في اقوالهم وافعالهم ، ومن اجل هذا كان قول النبي وفعله وتقريره دليلا على الحق .

ومن المفيد ان نختم هذا الفصل بما قلناه في المجلد الاول من تفسير الكاشف ص ١٩٨ : ان فكرة العصمة لا تختص بالشيعة وحدهم ، فان السنة قالوا بها ، ولكنهم جعلوها ايضا للامة ، لا للائمة ، مستندين الى حديث لم يثبت عند الشيعة ، وهو : « لا تجتمع امتي على ضلالة » .. والمسيحيون قالوا بعصمة البابا ، والشيوعيون بعصمة ماركس ولينين ، وقال القوميون السوريون بعصمة انطون سعادة ، والاخوان المسلمين بعصمة حسن البنا ، وكثير من البعثيين بعصمة عفلق ، وكل من استدل بقول انسان ، واتخذ منه حجة ودليلا على الحق فقد قال بعصمته شعر بذلك ام لم يشعر .

وفي الصين مئات الملايين اليوم تؤمن بعصمة ماوتسي تنغ ، واذا اختلف الشيوعيون فيما بينهم ، وكذلك غيرهم ممن ذكرنا فانهم يختلفون في تفسير اقوال الرؤساء والقادة ، لا في وجوب العمل بها ، تماما كما يختلف المسلمون في تفسير نصوص القرآن ، والمسيحيون في تفسير الانجيل .

فهرس الكتاب

فلسفة التوحيد والنبوة